
رواية
زوار القصر
محمود إمام
ديير
ساحر الكتب



روايـــة

زوار القصر

محمود إمــام



محمود إمــام

زوار القصر (روايــة)

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع

الناشر

شركة دير للتوزيع

2 عمارات الوادي المنطقة 11

الحى الثامن _ مدينة نصر _ القاهرة

01010106268

(002)24725789



روايــة

زوار القصر

محمود إمــام





«اجلس يا ولدى»..

اجلس بجوارى وسوف أقص على مسامعك قصة ذلك القصر المتهالك أمامك، الذى يسبب كل الإزعاج، هل تريد شرابًا؟

يمكنك أن تطلب من ذلك «صبى القهوة» إحضار كوب من الشاى الساخن لك. فأنا مُسن ولا يستطيع صوتى أن يصل إليه. كُح كح كح كح. معذرة، أعانى من الربو، وقد نفدت قارورتى، أعانى من الفقر يا ولدى، لا تقل إنى أريد جذب تعاطفك، ذلك ليس من شِيَمى، لن آخذَ منك شيئًا، عند ذلك الأمر كرامتى سوف تتحدث، دعك من تلك الأمور.

سوف أقص على مسامعك قصة لا يعلم بها أحد من الجالسين أمامك! فكل ما يعمله ويدرون به قصة سطحية للغاية، تجعلك تنفذ ذلك القرار الذى جئت من أجله بنفس راضية وبكل حماس مريح، متصورًا أنك تفعل الصواب وتنفذ التعليمات وتؤدى واجبك. أعطنى أذنك وانتباهك وأنصِت لى جيدًا، أنت تعلم أنى رجل عجوز، مُصاب بالزهايمر



المسكر الذى يصيب صاحبه بالعَتَه. أريد طرح القصة دفعة واحدة فلا تقاطعنى أو تحاول تشتيت ذهنى، استمع فقط، لا تهمنى هيئتك، أريد أن أروى لك الأحداث من باب الأمانة والمصداقية، وأرميها فى جعبتك، ومن ثَمَّ أذهب إلى حالى فلا ترانى بعدها، ولا أراك مرة أخرى! تستطيع رؤيتى فى الأحلام فقط لو أردت، عندما أحاول نحت الأحداث نحتًا داخل مُخيلتك الشابة، فأنا أعتزم على ذلك الأمر، أعدك أنك لن تنسانى، لن تنسى ذلك الرجل العجوز الذى أوقفك، وأجبرك بكل ذوق وحكمة على الاستماع لحكايته، وحكاية ذلك المنزل، وستقص على أطفالك تلك الحدوتة، ذلك لو كُتب لك الزواج يا بُنى!

ولا يهمك اتهام الصغار لك بالجنون!

قُصها على مسامعهم على أنها قصة خيالية على سبيل المثال!

لا تأخذ الأمور على محمل الجد أبدًا!

القصة التى لا أدرى هل هى واقعية أم مرعبة أم أم... سوف أقصها وأدعك تقول بعدها إنه عجوز أصيب بالخَرَف فى آخر أيامه، ولِمَ لا؟ أنا أتقبل ذلك الأمر، لا بأس، لن أتواجد بعدها.

قصة ذلك المنزل.. ها هو قد جاء «الصبى» حاملًا لك كوب الشاى المُحبب للجالسين على القهوة!

كح كح كح كح كح، معذرة يا ولدى، مرض



الربــو مُســيطر عــلىَّ الآن، كأنــه يُكبلنــى تكبيــلًا.

حسنٌ.

حســنٌ لقــد ذهــب الآن، نتمنــى أن يظــل نائمًــا. كــح كــح كــح كــح، أرأيــت، لم ينــم بعــد، فقــد عــاد بقــوة، هــا هــا هــا كــح كــح كــح. مــن أيــن نبــدأ؟

من البداية!

أعشق البدايات كثيراً.





عبر دفته صغيرة الحجم..
كتب صاحبه تلك الأحداث.





وحيدًا!
أجلس وحيدًا.

لن أحدثكم عن أُنْس الوحيدة، فأنا مغرم بها منذ أن رحل عنى القريب والبعيد، رحل عنى الجميع، وتركونى وحيدًا، لست فى مدينة عادية الطراز اعتدتَ أن تسمع عنها فى نشرات الأخبار، ولا حتى فى كتب التاريخ، مدينة خارج الوطن وخارج الإطار، وخارج كل شىء، ولن تسمع عنها سوى عبر تلك الأوراق المتهالكة، سوف أذكر شيئًا يلفت انتباهك:

هل تعلم أنى أجلس وحيدًا بالفعل، ليس جارٌ بجانبى، ولا شخص متسكع على جنبات الطريق، ولا امرأة تنهر زوجها لتأخره، ولا غضب أحد الأزواج من زوجته لأنها وضعت الملح «زيادة» داخل الطعام، لا شىء مما فات يتواجد على سطح تلك المدينة، تتساءل هل رحل السكان؟ هل ماتوا؟ ماذا حدث لهم؟ وكيف انتهى أمرهم إلى تلك الدرجة؟ نسيت! أعرفكم بنفسى فى بادئ الأمر، معكم أستاذ التاريخ «بدر أحمد العشماوى»، أبلغ من العمر ستين عامًا،



انتابنى الشيب على فَوديَّ فى منتصف الخامسة والخمسين، رددت فيما مضى أن القراءة أعطت لشعرى نضارة الشباب، حسدنى عليها أبناء العمومة رفاقى فى العمر، أحمل منظارًا طبيًّا قديم الطراز، يستقيم أسفلها منخار مستقيم، طالما كان ذلك المنظار يعطينى هيبة فوق الهيبة، أملك جسدًا عاديًّا هزيلًا ملائمًا لرجل عجوز، رغم استسلام الجلد وفقد نضارته هو الآخر فى مناطق عديدة بجسدى لا داعى لذكرها!

أنا شهير للغاية داخل مدرسة «صلاح الدين» التى تستريح منذ قرون داخل القاهرة كسلة مهملات جانبية لا يعلم بها أحد سوى التلاميذ الصغار، لا ألتفت للأقاويل، بالطبع تلك الأقاويل التى ترددت فى الآونة الأخيرة، التى تقول إننى انتابنى جنون ما طرأ منذ موت زوجتى وبناتى الصغار، أصبحت صارم الملامح أكثر وأكثر، لا أمرح سوى قليل مع زملائى داخل ذلك الكوخ المسمى مدرسة، أسير صارم الملامح دائمًا، تلك ليست صرامة، بل هى مُعاناة وكفاح السنين، رسمت خطوطها على وجهى العجوز، أستمع إليهم يقولون: «الراجل اتجنن ولا إيه.. ابعد عنه».

أعلمتم الآن لماذا أفضل الوحدة! الآن لا يجاورنى سواها، رغم تفضيلى لها، لكنى الآن أكرهها وبشدة، وأحتاج لشخص ما يُشعرنى بأُنس الحياة.



تساءلت كثيرًا، هل البشر صادقون في نعتي بالمجنون أو الممسوس، لا أعتقد، فعقلي يزن بلدًا بأكمله، ويحتفظ بالتورايخ العربية أكثر مما يحتفظون هم بطعامهم داخل الثلاجة. كتاب التاريخ! هو منبع دخلي الوحيد! ذهني مُشتت لا أدري من أي نقطة أبدأ بها حديثي.

يبدو أنهم على حق تمامًا بشأن ذاكرتي الضعيفة التي انتابتها الشيخوخة. وبالرغم من تلك الشيخوخة، ملف التاريخ لا يُنسى مطلقًا، أنسى كل شيء، عدا التاريخ، تذكروا ذلك الأمر جيدًا.

رغم قلة رؤيتي للأفلام برمتها، إلا أنه قد لفت انتباهي فيلم أمريكي يتحدث عن بقاء أحد الأفراد وحيدًا داخل هذا العالم، ولكنه كان على الاقل بصحبة «الزومبي» أو مصاصي الدماء، الذين يخشون أشعة الشمس حتى لا يحترق جلدهم فيختفوا خلف السواتر. ويراقبون الأحياء بالخارج، وذلك الواطي في نعمة، على الأقل هنالك أفراد تختبي من الشمس، على الأقل هنالك حياة أخرى غيره! أما حياتي...

أو ما تبقى منها. اللعنة قد نسيت. من أين أبدأ؟ لم يقل لي أحد. اةةة. أين أنت؟ ماذا حدث لك؟ وأين ذهب الباقون؟ وهل أنت داخل القاهرة أم؟ حسنٌ لنبدأ بأين أنت؟

***


ساحر الكتب



- «أستاذ بدر، ذلك الكتيب لم نره من قبل داخل المكتبة».

قالتها الأستاذة «هناء فريد» في توتر وهي تلاحقني وأنا أسير ذاهبًا إلى حصتي الثانية بفصل خمسة رابع، تسير خلفي كظلي، كانت تبلغ من العمر الرابعة والخمسين، محجبة وبدينة، تحمل وجهًا دائريًّا حشره أحدهم داخل ذلك الحجاب، أتت حاملة كتيبًا كبير الحجم، بني اللون، غلافه مصنوع من الجلد القديم، متشحًا باللون البني القيم، التفت لها، بعدما كادت تصطدم بظهري من الخلف.

قلت لها:

وهل الأمر مُفزع إلى تلك الدرجة. هدئي من روعك قليلًا.

الأمر خطر، كتيب سِحْر داخل المدرسة، لقد وجدته مع أحد التلاميذ الصغار، وقال لي إنه قام بإحضاره من المكتبة، وأنت تعلم أنا أمينة المكتبة، وأجزم أني لم أره سوى مع ذلك التلميذ.

أمسكته من يدها في فضول، وقمت بفتحه، وجدتها تغلقه وكأن بداخله شيئًا. كادت تلتصق بوجهي بقلة ذوق قائلة في سرعة:

لا تفتحه، إنه كتيب للسِّحْر.

قلت بازدراء:

وما أدراك؟



لقـد رأيـت داخلـه بعـض الرسـوم والطلاسـم. وقـد أخافنـى ذلـك الأمـر!

أحنيـت شـفتىَّ بالجهـل التـام، وقلـت لهـا فى ضيـق أكـثر، وأنـا ألاحـظ عـلى وجههـا تعابـير الاتهـام، وكأنهـا تقـول إنـه مِلـكك أنـت «مـا تسـتعبطش»، حـوادث الزهايمـر المسـتمرة سـوف أحدثكـم عنهـا فيـما بعـد، جعلـت كل مـن بالمدرسـة يتحاشـونى، ويهابـونى كأننـى المديـر هنـا:

مـدام هنـاء، هـل سـألتِ المحيطـين مـن المدرسـين، عـسى أن تجـدى أحدهـم تركـه هنالـك وهـو لا يـدرى.

قالـت فى سرعـة، وكأنـه أمـر بالـغ الأهميـة بالنسـبة لهـا. وجههـا غـير مريـح تلـك المـرة:

لقـد سـألت الجميـع، حتـى عاملـة الفـراش، ذلـك الكتيـب لم يحـضره أحـد إلى المدرسـة.

قلت ساخرًا:

ربمـا قـد جـاء طائـرًا! لا عليـكِ يـا أسـتاذة، سـوف آخـذه معـى.

احرقه يا أستاذ بدر.

لا تقلقـى بشـأنه، سـوف أحتفـظ بـه عـسى أن نجـد صاحبـه.

***

دخلت وأنا أكتم «سعالى» المدوى، أين علبة الدواء؟ وضعت الحقيبة أمامى على المكتب الموضوع بمنتصف الفصل، وأخرجت فى لهفة علبة الدواء، آخذ حبتين، وأفرغ زجاجة المياه البلاستيكية، داخل جوفى:

قيام.. جلوس.. درسنا اليوم عن...

هتف أحد التلاميذ:

الدولة العثمانية يا أستاذ.

- بالفعل، الدولة العثمانية:

افتحوا معى الكتاب صفحة ٣٤. عنوان الدرس «الدولة العثمانية»، لماذا أود قص موضوع مختلف، عن الذى يتواجد بكتاب الوزارة؟

قالها لى المدير ذات مرة: «من فضلك التزم بكتاب الوزارة، لا تخرج عن المنهج من فضلك.. من فضلك.. من فضك».

لماذا الحقيقة موجعة دائمًا؟ لماذا تخفونها عن الصغار يا أوغاد؟

قرأت بالأمس كتابًا يتحدث عن أصول الدولة العثمانية، هكذا هى عادتى، دس فى العقول الصغيرة الحقيقة، ولكن رغمًا عنى أتحاشى ذلك الوضع وأنا أدرس لهم منهج الوزارة، ما اسم الكتاب الذى قرأته البارحة «الأسرار الخفية



وراء إلغاء الخلافة العثمانية»؟[1] بعد أن فرغت من درس اليوم، الذى كان موضوعه عن الدولة العثمانية, بالمناسبة هى إمبراطورية إسلامية أسسها «عثمان الأول ابن أرطغرل»، واستمرت قائمة لما يقرب من ٦٠٠ سنة، تحديدًا من ٢٧ يوليو ١٢٩٩م حتى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م، أعلم أن أبناء ذلك الجيل لا يطيقون التاريخ، ولا الجغرافيا، فى زمنى كنا ندرس أدق تفاصيل تاريخنا المجيد، عبر كتيبات كبيرة وثقيلة الوزن لا يستطيعون حملها على ظهورهم، أما ذلك العصر، فيكتفى أحدهم بتذكر أنه تغدى بالأمس، ماضينا كان ثريًّا يا سادة، دمسًا. وللحق أقول:

ممتلئًا بالأكاذيب، من أجل لا شيء! فى كل يوم يمضى نكتشف أن التاريخ قد خدعنا، وضربنا على «قفانا»، تلك المعلومات الكثيرة معظمها لم يكن صحيحًا بالمرة، وإن شخصيات عديدة، ثملة كانت ومخمورة، أصبحت كاذبة

١ عن مأساة إلغاء الخلافة الإسلامية قال المؤلف: «رأيت وضعه بين أيدى المؤرخين ومفسريه والدارسين للنظم السياسية الإسلامية والدعاة، ذلك أن موضوع الكتاب يعالج أكثر القضايا اتصالًا بمآسى المسلمين فى العصر الحديث، حيث انفرط عقد وحدتهم بإلغاء الخلافة التى ظلت جوهر النظام السياسى الإسلامى منذ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم». ويذكر المؤلف فى موضع آخر الهدف من كتابه فيقول: «ويسهم هذا الكتاب فى إيقاظ الوعى التاريخى وتعريف الأجيال الجديدة بتاريخها الصحيح، فما الغرض من دراسة التاريخ إلا فهم الحاضر - لأنه ابن الماضى - والسير بخطوات سليمة نحو مستقبل أفضل بعد الدراسة الواعية واستخلاص العبر والاستفادة من الأخطاء والتعلم من دروس التاريخ الصحيح المدعم بالوثائق» .ومحور الكتاب يدور حول إقناعنا بحتمية نظام للأمة الإسلامية، إن أراد المسلمون العودة إلى الكرامة والسؤدد والنفوذ والمكانة الدولية المهابة من جديد.



وبمنتهى الصدق، مجّدها التاريخ الخرف الذى يصنع الأبطال فقط، ولا يدرى شيئًا عن الفشل سوى نادر، لا يدرى سوى تدوين النجاحات لأحدهم، يَنسب إليه نجاحًا وهميًّا لا يستحقه، ومن بعدها يوضع على كتيبات التاريخ، لتدريسه لأجيال آخرين, من أجل وضع أسمائهم بحروف من نور، ذلك لأن التاريخ يحب دائمًا الأبطال ويهمش الفاشلين، التاريخ يحب الفاسدين الذين يرتدون أثمن الحلل، ويقفون ويهتفون بأشياء كاذبة، عندما يرتدوة حلة الأبطال يصبح كل شيء مقبولا، هل تريدون معرفة ما هى الدولة العمثانية عن قرب، أم اكتفيتم برؤية المسلسلات التركى اللعينة؟ لا بأس، لن أزعجكم. مَن يقرأ تلك المذكرات عن تاريخ الدولة العثمانية الموضوع الرئيس للكتاب الأصلى الكبير؟

رغم شغفى الكبير فى سرده لكم وممارسة دور المدرسة خارج المدرسة. «ما علينا»، أخذت الكتاب أسفل ذراعى اليمنى، وأنا أضع حقيبتى متدلية على كتفى الأخرى، وسرت نحو المنزل، الذى كان ينبض فى الماضى بحياة أسرتى المسكينة التى رحلت عن عالمى، وتخلت عنى، ها أنا أضع ذلك الكتيب على المكتب الوثير، الموروث عن أبى، بالطبع أمامه مكتبة كثيفة الكتب، وتكتظ بالكتب التراثية، أتثاءب، أذهب لإعداد الغداء الصغير، وبعد أن فرغت، وأعددت



كوب الشاى الساخن، ذهبت إلى المكتب على عجالة، وكان ذلك الكتيب كنزًا ثمينًا، رغم عدم الاهتمام به، ولكنى أحب مطالعة أى شىء مجهول، وكانى أمتلك سرًّا لا يمتلكه أحد، وأنا على وشك فتح باب سحرى، رغم كرهى للسحر، أضع منظارى للرؤيا العادية، وأضع منظارى الآخر الذى أستخدمه للقراءة، أفتح الكتاب لأجد كاتبه شيخًا يدعى «...»، مقدمة طويلة عن ابن «فلان» وعن «فلان» ابن «فلان» وعن ابن... صفحة رابعة «الباب الأول»، «جزء الملك سنيورن»، «البوابة الأولى»، «مدينة أخرى»، وصف لمدينة عجيبة، وعجيب أهلها وهيئتهم، عن أنهار صائفة متدفقة، وعن أشجار تنبت بها كل أصناف الثمار، وعن نبتة لعودة الشباب الدائم، وعن نهر كذا وكذا.

هنالك جلبة تحدث بغرفة الاستقبال، أنظر من أسفل النظارة كعادتى، أهى قطة؟ لم آبه كثيرًا، وأنا أعاود القراءة، هنالك باب عجيب لو تم عكس حروفه هكذا، لأصبح لديك قوة رؤية الماضى، ماضى المكان، كل أدوات السحر إن لم تستخدمها وتقوم بالطقوس الموضوعة، فلا يحدث لك شىء بالقراءة، أدرك ذلك الأمر.

هنالك جلبة أخرى استمعوا معى إليها «جررررررراا خششش»، المنضدة تتحرك، وضعت شيئًا على صفحة



القـراءة، وأغلقـت الكتـاب، كان كل شيء صامتًـا، تـرى هـل هـو التلفـاز؟ مغلـق. أو الراديـو؟ صامـت. بالمناسـبة، ذلـك البيـت عبـارة عـن فيـلّا قديمـة الأثـر؛ مـن الـتراث، أعتقـد لـو علمـت بـه الدولـة... ورثهـا أبي ولا أدرى عـن أى جـد أو عـم أو خـال، المهـم أنى وجـدت نفـسى أملكهـا فى يـوم مـا، أعيـش بالطابـق الثـانى، الثالـث وهـو الأخـير مهمـل بأثاثـه، ومغطى بغطـاء أبيض اللـون، لم أذَره مطلقًـا منـذ مـوت الراحلـين، فقـط كانـت بنتـاى تمرحـان بالأعـلى، ولم تتـوانَ زوجتـى عـن تنظيـف كل شـبر داخل فيلتـى الكبـيرة، فقـيرة البـشر، ومنـذ وفاتهـا، لم أصعـد للطابـق الثالـث، اةةة تذكـرت، منـذ وفاتهـم صعـدت مـرة أو اثنتـين لأذرف الدمـع قليـلًا، وبعدهـا، لم يعـد لـه قيمـة سـوى تذكـيرى بالأمـوات، الطابـق الأول، صامـت هـو الآخـر رغـم ظلامـه، لمـاذا إطفـاء الأنـوار دائمًـا عـدا الـدور الثـانى الـذى أقبـع داخلـه، لا أدرى، المهـم أنى بحثـت هنـا وهنالـك، ولم أجـد مـا يدعـو لحركـة المنضـدة، ولا تلـك الأصـوات، أعلـم مـاذا يـدور فى أذهانكـم، لا يوجـد عفاريـت! وحتـى لـو كان، لم أعـد أشـعر بالخـوف، مـاذا سـأفعل؟ فلتفعـل مـا يحلـو لهـا، سـتكون مواصلـة سـهلة للآخـرة، واللحـاق بالمـوتى الأعـزاء.

***

حادثـة.. مجـرد حادثـة أودت بحيـاة زوجتـى وبنتـىَّ الصغيرتـين. الآن مـاذا أنتظـر؟ البـكاء؟ بكيـت! الحـسرة؟ قـد سـالت الدمـوع نهـارًا وليـلًا حـسرةً! لا مزيـد مـن البـكاء،



أربعون يومًا من البكاء لن تعيد أحياء وبأجساد نضرة. كل هذا هراء، اشتقت لرحيق زوجتى، ولمرح فتاتَىَّ أمامى وجوارىَّ. شعور قاسٍ لا أستطع أن أصفه. ها أنا أغلق الكتيب، وأدعك عينىَّ اللتين قد أرهقتهما القراءة المتواصلة!

أعود إلى فراشي، وها هو الغطاء يغطى جسدى، ثم الهدوء، والاستسلام للنوم فى الماضى، كانت تؤنسنى أنفاس زوجتى خلفى، ما كان يعطينى شعور بالطمأنينة بأن ظهرى مؤمن، وفى الصباح مرح بنتىَّ الصغيرتين، فقد اعتدت منهن إيقاظى حتى ألحق بميعاد طابور الصباح، ومن بعدهن السكون المطبِق، أصبح الرفيق. لا يوجد ظهر مؤمَّن، ولا أجد أنفاسًا سوى أنفاسى على الفراش. حتى أكاد أستمع إلى دقات قلبى الذى كان يقول لا تخف أنا بجوارك.

هل استمع أحد إلى ذلك الصوت؟ صوت أقدام تسير فى الغرفة، وتمر بجوار الفراش من الخلف، أرفع الغطاء الذى كان يغطى وجهى فجأة ولا أجد أحدًا! محقن من القلق ضربه أحدهم برفق فى وريدى، هل هو إرهاق العمل بالمدرسة؟ ربما! لكننى أجزم أنى قد استمعت إلى أصوات أقدام تسير بهدوء وكأنها تتسلل برفق لسرقة محفظتى، أنتفض من الفراش، أراقب الصالة، الحمَّام، أنظر إلى الطابق الثالث فى صمت، لا أقدر على الصعود، ربما كان لصًّا، وهرب



إلى فوق، إلى الطابق الثالث، الوضع أصبح خطرًا لا بد لى من الصعود إذن. ولا يمكننى!

***

أجلس داخل الصالة، أحبس يدىَّ بقدمىَّ بخوف وقلق مثل الأطفال، لا! لا يمكن لرجل مثلى أن يخاف وهو فى سن اليأس، ألم أقل إنى مرحب بالموت، فلماذا أخاف إذن؟ هل أصابنى الخرف؟

مَن الذى يحرك فاظة الورد الموضوعة على منتصف سفرة الطعام؟ أضاءت الأنوار بأكملها، حتى اتشح المنزل بضوء أشبه بضوء النهار!

الآن ماذا أنتظر ها هنا؟ هل لك أن تخبرنى من أنت؟ بل من أنتم؟ هنالك كرسى صغير موضوع بجوار مائدة السفر يتحرك ببطء. الكرسى الخاص بابنتى «ميادة».

***

تأخذ ميادة الكرسى الصغير، وتجلس فى هدوء، وتصفق بكلتا يديها. ها قد أنجزت أمى الطعام، وتبتسم، تجلس شقيقتها الكبرى «سارة» بثبات أمامها التى تكبرها بسنة كاملة، تقول وهى تُخرج لها لسانها:

أنتِ غبية.

تقول ميادة وهى تبتسم:

سوف آكل أنا أولًا، إمممممم «تُخرِج لها لسانها بدورها».



أتيت أنا حاملًا جهد وهموم يوم دراسى كامل، أجلس فى صمت وأراقب الفتاتين، أقول لهما صارمًا:

كفى اليوم، والدكِ تعب.

أتت زوجتى وهى تحمل إناء به الحساء الذى أحبه، وتضعه بمنتصف المائدة قائلة:

كفى يا ابنتىَّ أبوكم مرهق اليوم.

تُشير ميادة إلى سارة:

أرأيتِ يا أمى؟! سارة تغيظنى.

تبتسم زوجتى لها قائلة:

يا لكِ من شقية!

وتذهب لإحضار باقى الطعام، وما إن اكتمل النَّصَب اليومى من الطعام، قالت بهدوء:

هيا اكبرا سريعًا حتى تساعدانى فى إعداد الطعام.

قالت ميادة فى سرعة:

سأساعدكِ أنا أولًا.

قالت سارة بعناد:

بل أنا أولًا.

قلت لها:

فتياتك على أتم الاستعداد لخدمتك.

ها ها أنتِ لا تدرين شيئًا.. إنهما تجيدان الحديث.. الأفعال صفر.. ها ها.

قلت لها فى اهتمام:



أخذتِ العلاج قبل أن نأكل؟

قالت فى شرود كالتى فقدت الذاكرة:

لا أدرى. ربما.

لا يا سيدتى يجب أن تتذكرى، فلقد شعر الجميع داخل المدرسة بتوترى وعصبيتى، ولم أفصح لأحد، مرضكِ يُصيبنى بالجنون.

قالت بامتنان:

أنا بخير، لا تقلق. انتظرانى، لا يأكل أحد حتى أعود.

أنظر لها وهى تترك المائدة وترحل لتأتىَ بذلك الدواء، مُحملة بأطنان من الهموم وبقدر كبير من المسئولية، التفت إلى الكرسى التى كانت تجلس فوقه ميادة، ولا أجدها، أجد يدين صغيرتين تقبضان على عينىَّ، وصوتها يأتى من الخلف يقول: «مَن أنا؟»، أسايرها فى لعبتها الصغيرة: «أنتِ حبيبتى»، «إجابة خاطئة»، «مَن أنا؟»، «أنتِ حبيبتى». «توٴ توٴ توٴ، أنت بليد». تترك عينىَّ حُرتين، وآخذها فى أحضانى: أيتها الشقية. أتت زوجتى لتمسح شيئًا ما كان أسفل عينيها! وجلستْ، كان الدفء يعم على تلك الوجبة. وقالت لى زوجتى إنها تشعر بقلق مبهم لا تدرى كنهه. فقد كان مرضها منتشرًا إلى درجة بشعة. كانت توصينى بالفتاتين، وكنت أغضب أنا كثيرًا من حديثها الماسخ.

***



الكرسى يتحرك، ويعود إلى موضعه مجددًا. ترى هل يخيل ذلك الأمر؟ لقد حدث ذلك الأمر، بهدوء؟

هل عادت أرواحهم من جديد؟ لا أدرى! أنا أخشى الصعود إلى الطابق الثالث، وكأنه يعج بالموتى الأحياء. لا أدرى، أشعر بالرعب الصامت، مع رعشات تفاجأت بها عظامى، وتسير داخل أوردتى، أنظر إلى ساعة يدى التى أشارت إلى الساعة الثالثة من فجر اليوم، تبًّا، هل بقيت أقرأ فى ذلك الكتيب طوال الساعات الأربع! هل للذاكرة وهشاشتها نصيب فى ذلك الأمر، هل هى الشيخوخة التى لم أستطع إنكارها؟ لا أشعر بمرور الوقت، لا أشعر سوى بدوار عنيف، وأسقط أرضًا.

***

أفيق لأجد فمى مفتوحًا وتتساقط منه بعض مياه؛ «ريقى» بالطبع، شعور سهام اخترقت عظامى، أفرك كتفى من البرد، أسير كعصفور وقع داخل قالب يحمل الماء، لكنى لا أستطيع الانتفاضة مثله قط، ملأ العرق جسدى حتى تيقنت أنى أُصِبت بنزلة برد شديدة، وكانت بالأمس أثناء وقوفى بالبلكون، وكنت أدرك أن نسمات الهواء تقصد عظامى، ولا تقصد مُداعبتى، وحيدًا كنت ولا أزال.

أخبرتنى السيدة هالة بالزواج من شقيقتها العانس، وأنها وثيقة التأمين الخاصة بها، وأن لا أقلق. رفضت بكل أدب،



ليتنى قبلت ذلك الأمر. فإننى أحتاج إلى شخص يطبطب على كفتى، يخشى أن أرتعد أمامه، أريد عاطفة زائفة ذلك الوقت، لتشعرنى بوجودى حتى.

***

أمسك كف زوجتى، كان وجهها يتعرق، ويحمل معالم الرضا، قلت لها بصرامة:

ستُشفين يا عزيزتى، كلها بضعة أيام وستكونين بخير بعد أخذكِ العلاج بانتظام، كما قال طبيب!

تبتسم رغمًا عنها، أمسك ذلك الباشكير لأزيل قطرات العرق الذى تصبب منها، قالت:

حافظ عليهن، إنهن فى أمانتك.

ألا تكفين أبدًا، قلت لكِ لن تذهبى، ستظلين جوارهن وستُزوجينهن بنفسك. يكفى الكلام الهدام.

رأيت عينيها تمتلئان بدمعة حارة تود الهرب، وانبثقت منها بالفعل وقالت فى استسلام:

أرجوك تحمل من أجلى! قل للفتاتين إن أمكما تريد رؤيتكما.

اعتصرت قلبى عصرًا، كلماتها أقسى من فقدانها! لا أتوقع حياة بعدها، ها أنا أقف وأربت على رأسها، وأهتف للفتاتين أن احضرا واجلسا مع أمكما، وسوف أذهب لإحضار الدواء من الصيدلية القريبة من هنا.

***



هبطت على الأدراج شارد الذهن، وشعور الحزن يعصفنى عصفًا، ويقذفنى نحو الهاوية، ومنذ زواجنا، اعتدت أن أونسها، اعتدت على رحيقها المتشبع بروائح الطعام المختلفة صباحًا وعلى الغذاء، وبالعطر مساء، وبالنشاط صباحًا، وكأنه تملّك عملًا ما ولا أدرى شيئًا عنه، وهى توقظنى، وتحضر لى طعام الفطار، وكأنه عملها البديل، تنغمس مع الفتيات وقبل دخولهم إلى أحضان المدارس، تعلمهم الحروف والأرقام، وتروى لهم القصص المسلية ليلًا، تضحك معى ونحن نشاهد الفيلم الكوميدى حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى، تتحملنى عندما أثور وأغضب وأحطم الأكواب، لمجرد أن تلميذًا ما أصيب بالغباء، وقام بـ«كروتة» الواجب، أثور لأتفه الأسباب، هكذا اعتدت، وقد اعتدت أيضًا على احتوائها، وكأنما تخشى على قلبى من التوقف فجأة، أستمع إلى بكائها قبل الذهاب إلى النوم، ولا أدرى سببًا لذلك الأمر، لاحظت عدم قدرتها على فعل واجبها المنزلى المعتاد، تبكى لأنها غير قادرة على العطاء! والميزانية لا تسمح بوجود خادمة لخدمتها، لا أدرى هل أنا قاسٍ إلى تلك الدرجة! تأنيب الضمير جعلنى أتولى زمام الأمور لفترات قصيرة، كنت أقوم بالنيابة عنها بكل تلك الأمور: من طبخ الطعام وغسل الصحون، وتصحيح الواجبات للتلاميذ، مجالسة الفتاتين اللتين أشاحتا بوجهيهما عنها، واكتفيا بألاعب مع العرائس الصغيرة، ذلك ما كان يريحنى



كثيرًا، تمسكت الزوجة إلى عودتها مرة أخرى بحجة «تقلت عليك بزيادة»، عادت نشيطة، بل أكثر نشاطًا مما سبق! أفتح ذلك الدرج الصغير.. لأجد بعضًا من أوراق التحاليل، التى تبرز إصابتها بسرطان فى المخ، ووصل إلى أقصاه، كيف هذا؟ ولماذا لم تخبرنى؟

***

أقذف البرشامة داخل فمى، لا نوم فى تلك الليلة، البيت الكبير الفارغ يتحرك أثاثه، وتحديدًا أصبح سماع الأصوات فى الأعلى أكثر وضوحًا، وكأنه ممتلئ بالحياة. بصوت مسموع وواضح، لا دخل للشيخوخة والهرم بها.

فى ذلك الركن فى الصالة الكبيرة، خلف شاشة التلفزيون، كان هنالك ظل. ظل معتاد، يمكنك رؤيته يوميًّا. الساعة الآن السابعة صباحًا. تحرك الظل، أغمس يدىَّ داخل عينىَّ لأتحقق من الأمر! تحرك. وسار على الحائط، كأنه شخبطة بالقلم الرصاص. شخبطات مهولة الحجم تتحرك برفق شديد، تَقشعِر منه الأبدان. يتحول إلى هيئة آدمية. لا تنظر إلى الحائط يا «بدر»، لا تلتفت ناحيته. أخبره أنى لا أراه، بإمساكى كوبًا من الماء، ويدى تهتز وأنا أصوبه تجاه فمى! الظل يتحرك نحوى. لا سبيل، سوف يواجهنى بعد ثوانٍ. يقول أنا هنا. أراقب بطرف عينى، إلى ذلك الجسد الأسود. قلبى لا يتحمل! أستمع إلى صوت جهورى رغم



انخفاضـه، صـوت أتى مـن أعـماق بـئر سـوداء عميقـة يقـول: «لقـد حـضرت».

***



أمام الصيدلية.

أعطيه المال، وآخذ الباقي وأضعه داخل جيبي، العلاج أخذ أموال الشهر بأكملها، ولا أدري ماذا أفعل آخر الشهر، كيف سأمول منزلي وأسد فاه الجائع دائمًا، كيف سأطعمها وأطعم صغاري، هل أسرق؟ كلا بالطبع، هل أطلب سُلفة؟ المدير ملَّ مني في الحقيقة، ولا أعتقد بقبول ذلك الطلب، وتلك السلفة لو طلبتها تعد السلفة الثمانين، لهم حق أن يملوا، ولي حق في طلبها، لا أملك سوى أخت بخيلة، هاجرت وتركت البلاد، هل ملت مني؟ لا أعتقد، فقط طلبت منها السلفة للمرة «الخمستلاف»، علمت فيما بعد أنها غيرت المسكن ولم تهاجر بعد من أجل أن أكف عن طلب النقود منها، لأني أعلم مسكنها، لا أدري، ربما معها كل الحق!

انفجار قريب.. الناس يلتمون ويجرون من كل صوب نحوه. بالقرب من منزلي. أسير في لا مبالاة. أمسكني شخص وقح من خلفي قائلًا:

أستاذ بدر انفجرت أنبوبة البوتاجاز بمنزلك، هلم نلحق بهم.



أصابتنى صاعقة من السماء، جعلتنى أركض، بلا وعى، سقطت منى الأدوية أرضًا!

أركض وأركض ولا أدرى شيئًا.

***

تَشكَّل الظل على هيئة بشرية سوداء. توقعت فى بادئ الأمر بشاعة هيئته! لقد أصبح يماثلنى فى الشكل والهيئة، لكنه أكثر ثقة وقوة، شيء أشبه بحكايات الجدة القديمة عن الظلال والجن الذين يختفون خلف كل شيء مظلم، خلف التلفاز، احترس يا ولدى أن تسير ليلًا. نَم يا ولدى نام، حتى يطلع النهار، حتى لا يأتى العفريت.

***


ساحر الكتب





أشباح الطفولة التى تختفى داخل المطبخ..

ما أبشعها!

تبًّا لتلك الأقاصيص اللعينة.



سحب كرسيًّا. ذلك الظل! وجلس جوارى، ولا زلت أرتعد كقرد، أو كالطفل أتمنى أن تكف جدتى عن سرد أقاصيصها المرعبة! ها هى تتحقق بعد أن بلغت من العمر أرذله.

كهل قد وقع داخل بحيرة، وانتظر على الشاطئ ليجف.

هل يوجد بمنزلى شخص آخر، كان منذ قليل مثل الدخان المطبوع على الحائط، وتحول إلى هيئتى، هل سيبدل الأماكن؟ هل سيأخذ مكانى ويقتلنى وأذهب سريعًا إلى العالم الآخر؟ لكننى لم أكمل رسالتى بعد، التلاميذ فى الصف الدراسى الأول، ولم أُنهِ كتاب التاريخ بعد، لا بد لى من إنهائه لهم حتى أكون على أتم الاستعداد لمقابلة الموت، وأنا راضٍ عن مجهودى فى ذلك الترم الطويل، قال الذى كان ظلًّا:

هل تخاف؟

صوته جهورى رغم انخفاضه، يتسلل عبر حواسى فيؤلم أذنىَّ، ويتسلل عبر رأسى ليصيبه برجفة كهربائية، فأشعر بصداع قوى، أكمَل:

لماذا تخاف؟

تلعثمت وأنا أشعر بالفعل بالخوف، قلت مثل الأطفال الصغار وأنا أتحاشى النظر إليه:

مننن.. مننن أننت.

قال بهدوء وهو يعتدل، ولم أره بعد، فقد شعرت بذلك الأمر:



أنت تعلم!

واجهته، إنه أنا! ويرتدى نفس الزى الذى أرتديه الآن!

قلت:

كيف لى أن أعلم مَن أنت؟

نظرات ساخرة أطلّت من عينيه، مط شفتيه قائلًا:

الكتيب.

عن أى كتيب تتحدث؟

تبًّا، اللعنة! هل يتحدث عن ذلك الكتيب الكبير الموضوع داخل مكتبتى، الذى أتيت به من المدرسة؟

وما غيره إذن! تلك هى المرة الأولى التى أجلس بجوار عفريت، فتشت داخل دهاليز ذاكرتى عن مشهد مرعب فلم أجد.. منذ عام ١٩٦٥، لا ليس هذا العام، كان فيلمًا قديمًا للغاية، بل هو أقدم فيلم رعب فى التاريخ، كان إنتاج عام ١٩٢٢. إن مشاهدة فيلم «نوسفيراتو»[٢] هى كالتواجد

٢ الفيلم الألمانى كان يعتبر طفرة فى عالم السينما وقتها، كما أنه استخدم الظلال بمهارة عجيبة لم يسبقه أحد إليها، وربما لم تستخدم بتلك الطريقة المبهرة من بعده. وكان بطل هذا الفيلم يُدعى «ماكس شريك»، الغريب أن هذا الممثل لم يسمع به تقريبًا بعد هذا الفيلم، وانحسرت أدواره للغاية حتى تكاد لا تُذكر. فقط كل ما قام به فى حياته هو القيام بدور مصاص الدماء «كونت أورلوك». واختفى تمامًا عن الساحة ولم يعد أحد يعرف عنه أى شىء تقريبًا، الأمر الذى ألهب خيال العديدين وجعلهم يعتقدون أنه مصاص دماء حقيقى، الرحلة المعروفة فى مسار القصة هى موثق العقود الذى يُرسله رئيسه إلى ترانسلفانيا ليقابل الكونت أورلوك الغامض، بينما موثق العقود متزوّج من فتاة جميلة هى إلين، وفى خلال الرحلة يحذره الفلاحون من المضى قدمًا، ولكنه لا يعرف هوية الاسم المرعب، بخلافنا بالطبع!



مـع المـوت نفسـه فى غرفـة ذات ضـوء خافـت لعـالم يشـن معركـة خـاسرة ضـد الظلمـة الدامسـة، حجـرة كئيبـة بتأمـلات همجيـة منـذ مشـاهدتى لذلـك الفيلـم، كنـت حينهـا شـابًّا أو صبيًّـا لا أذكـر، جعـل جسـدى بأكملـه يرتعـد لعـدة مـرات ولعـدة أعـوام عندمـا يختـلى بى الظـلام، ومـن بعدهـا أصبـح كل شىء هُــراء.

***

ويرفـض أى شـخص مرافقتـه إلى القـصر. يهتـاج الكونـت بشـدة عندمـا يـرى الدمـاء تنـزل مـن إصبـع «الموثـق»، وكذلـك يعجـب للغايـة بصـورة خطيبتـه بـلا مـبرر واضـح فى الفيلـم، ولكـن نعـرف السـبب فيـما بعـد فى الأفـلام التاليـة بأنهـا كانـت حبـه القديـم، يكتشـف الموثـق أن الكونـت مصـاص دمـاء رهيـب بالتدريـج، كـما يصبـح سـجين القلعـة، ويسـعى الكونـت للوصـول لخطيبتـه عـلى الرغـم مـن كل المحـاولات التـى بـاءت بالفشـل، وعـلى الرغـم مـن مـوت الكونـت فى الفيلـم إلا أن هنـاك غموضًـا غريبًـا يحيـط بالأمـر يجعـل المشـاهد يشـعر بـأن الظـلام والـشر انتـصرا فى الفيلـم برغـم كل شىء.



«اهـدأ قليـلًا، لا يمكنـك الصعـود؛ فالطابـق محـترق تمامًـا».

كنـت ثائـرًا، حزينـا، محطـمًا، مكسـور الخاطـر. ضائعًـا، وأنـا أتحـدث مـع أحدهـم يمنعنـى مـن الصعـود إلى الطابـق الثالـث، قلـت لـه بتوسـل:

أرجـوك بنـاتى وزوجتـى هنـاك، أريـد رؤيتهـن، أريـد رؤيتهـن.

الطابـق يعـج برجـال الإطفـاء والإسـعاف، وببشـر لا أدرى عنهـم شـيئًا، قـد رأيتهـم وأنـا أمـر بذلـك الشـارع، وُجـوه مألوفـة، تربـت عـلى كتفـى ويواسـونى!

هـل فقدتهـم؟ هـل فقـدت زوجتـى؟ بنـاتى الصغـار، الملائكة، هـل رحلـنَ معها؟

أشـاهد أصعـب، بـل أقـسى، بـل... بـل... بـل...! مشـهد حطَّمنـى تحطيـمًا.

الذيـن يرتـدون الجلاليـب البيضـاء يحملـون نعشـهم. واحدة تلـو الأخـرى. أمسـكت بيـد زوجتـى، ومنعنـى أحدهـم، لَكَمته بـكل قسـوة، منعنـى آخـر، وآخـر، انهـرت ووقعـت أرضًا عندما رأيـت نعـش الفتيـات الصغـار، يهبـط مـن الأعـلى.

صرخت: «لاااااااااااااااااااااااا.. لااااااااااااااااااااااااا».

***

قال الشبيه فى رتابة، وكأنه يقوم بتقليدى:

لا تعلم من أين أحضرت الكتاب إذن!

حديث انتشل كالمحقن الخوفَ الذى كان يقبع داخلى، جاوبته:

لقد وجدَتْه السيدة الفاضلة «هالة»، ومن ثَمَّ أخذته من...

قاطعنى ببرود:

لولا أنى أعرفك جيدًا لقلت إنك أصِبت بالشيخوخة، والزهايمر يأكل من عقلك.

قلت بحذر:

هل تعلم شيئًا لا أعرفه؟

أخذ نفَسًا عميقًا ثم أجابنى:

لقد أحضرتَ أنت الكتيب إلى المدرسة.

لم أتفاجأ وأنا أقول بفضول:

لماذا لا أتذكر شيئًا، ومن أين أحضرته؟

قال بصوت هادئ حسبته مخيفًا:

أنت تعلم كل شيء! لا تمثل الغباء أمامى.

حقًا لا أدرى عنه شيئًا، وعندما فتحته تعجبت مما رأيت ومما قرأت!

قال وهو يخترقنى بعينيه؛ شعور مُخيف من نظراته، هل القوم يشعرون بمثله عندما أنظر لهم فى شك؟ أنظر إلى الجميع بشك! يا لى من شرير بائس:



مكتبتك تعج بكتب السِّحْر، ألا تذكر؟

التفت إلى مكتبتى. فقال هو:

هيا فلتقم إذن ولنُلقِ نظرة.

***

بعد وفاتهم، وبعد مرور ثلاث سنوات من العزلة التامة، أذهب إلى المدرسة وأعود، أنام، آكل، أطالع الكتب، لماذا لا أذهب إلى المكتبة؟ تبقَّى قليل من المُرتب.

أتذكركم يا أحبائى. لم أنسكم مطلقًا تعيشون داخلى على الأقل. وحينما أموت سوف أعود إليكم مرة أخرى! وإلى أن يأتى موعدى، يجب علىَّ أداء واجبى كمُدرس تاريخ، علىَّ صب كل تعليمى وعصر نافوخى مثل الفوطة المبتلة بالماء داخل أدمغة الصغار، وأفرغ المعلومات التاريخة لهم، لإيصال جيل من التلاميذ إلى الحقيقة وحدها!

أتتنى شكوى من إحدى الأمهات، تقول لى إن ابنها يتمرد عليها، ويطالبها بالحقوق، وذهب إلى أبيه وقال له غيِّر تلك المرأة بأخرى صالحة، أنا أحاسبك عليها، قالت لى إنى أضر بعقول الأطفال، وأنا لا أشعر بذلك الأمر، أبلغهم الحقيقة، بعيدًا عن كتب التاريخ المحرَّفة، كى تجعل من أبطالها أساطير، رغم مسئولية إيصال كتب الوزارة لهم بالطبع.



لم تنقطع الشكاوى! وشكوى أخرى وأخرى.. لماذا لا أقرأ كتب تاريخ أخرى؟ كتب القِدَم. أوصلونى إلى كتب، طبع عليها رسومات غريبة الهيئة.

***

قال الطبيب النفسى، فى هدوء مريح:

مشكلتك الرئيسية فقدان الذاكرة، ولا نملك حلًّا مناسبًا لذلك الأمر، سوى بعض الأدوية التى كتبها لك زميلى الآخر، طبيب المخ والأعصاب، علاجك الرئيسى الذى أراه لك، لا تفرض سوء النية مع الآخرين، مهما رأيت.

لا أقدر، أشعر بفتور غريب منهم.

يتوقف ذلك الأمر عن معاملتك لهم، وأنت كما قلت متجهم دائمًا، عصبى دائمًا، تشرح لطلابك بمنتهى الجدية.

هكذا اعتدت! ولن أتغير.

اشرأب الطبيب وهو يحاول إيصال المعلومة على أكمل وجه:

ثورتك الدائمة عن فقدانك الأشياء، اتهمت زملاءك أكثر من مرة بسرقة هاتفك مرة. وبسرقة محفظتك مرة أخرى، واتضح لك فيما بعد أنك تنسى. شعور فقدان الأشياء مستمر.



أقول بنبرة يشوبها الحزن:

لا أتوقف عن فقدان الأشياء.

قال الطبيب في هدوء وكأنه يواسيني:

ذلك الحادث أثر بشخصيتك كثيرًا، فقدانك لأم أولادك وبناتك، يحتاج إلى مدة طويلة، تحتاج من خلالها الابتعاد عن كل شيء: عن المدرسة على سبيل المثال، يمكنك معاودة القراءة، سافر، ألا تمتلك منزلًا ريفيًّا مثلًا؟

أنا من مدينة بنها، منبتي الأصلي، ولكني لا أملك عائلة، أو أملك لا أدري حقًّا، لكني لن أدخل معركة بطلها الإرث، أين إرثي يا هذا؟ لا أملك مقدرة على مواجهة أقرباء لا أدري عنهم شيئًا.

قال بهدوء:

ولِمَ لا؟ ألا تعتقد أنهم يبحثون عنك؟ جرب! ولِمَ لا؟ لا يوجد فرد لا يملك جذورًا على الأقل، سافر لهم، على سبيل شعور بحنين القربى وإيصال صلة الرحم.

كلا، سوف أذهب إلى مدينة ساحلية، وأحجز ليوم أو ثلاثة، لا يهم.

تحتاج لفترات طويلة، وأنصحك بالذهاب لمدة طويلة، تتجاوز الثلاثة أشهر.

الميزانية لا تسمح.



قال الطبيب وأشعر بنفاد صبره:

حسن، فلتعدُنى إذن أن تبتعد عن سوء الظن والشك حتى لو قاموا بسرقتك أمام عينيك، ولا تنسَ أنت تعانى من الزهايمر، والزهايمر تلك المرة يعتمد على صدمة، صدمة ذلك الحادث جعلتك تُصاب بالزهايمر السريع لرغبتك فى نسيان صدمتك لفقدانهم.

أعانى من الزهايمر.

***

قال شبيهى:

سوف أريك شيئًا، سوف يدهشك!

أضاء شاشة التلفزيون، ما هذا؟ هل أصبحت بطلًا لمسلسل درامى؟ أضاءت الشاشة وأنا أرى نفسى حاملًا كتابًا؛ ذلك الكتاب الذى يقبع داخل المكتبة، وضعته تحت إبطى وأنا أحمل الحقيبة، وأذهب إلى المدرسة، وألقِى تحية متوجهًا إلى حارس المدرسة، ذلك المخرج يحتاج إلى الإشادة، لقد راقبنى بدقة، وبزوايا مدهشة، صافحت زميلًا بجدية، وأنا أقول: «هل بدأ الطابور؟»، يقول مازحًا: «وفاتك أيضًا» أتركه وأتوجه إلى المكتبة، حيث وضعت ذلك الكتيب الكبير، وذهبت إلى الحصة. الكاميرا تبتعد عنى، وتصوب عدستها نحو الأستاذة هالة، التى أسرعت إلى الداخل، كانت ترمقنى فى بادئ الأمر وتعجبت من ذلك الكتاب الكبير، وذهبت



نحوى لتحيتى، لكنى قد سبقتها إلى حصتى وأوقفنى أحد الزملاء هنالك، كيف لم ألاحظ؟ أأسرعت إلى داخل المكتبة، حينما دخلتها ولم أخرج بالكتاب، وهى تفتح الكتاب، وتضع يدها على صدرها بفزع، وعيناها تتسعان لما رأته، قالت لأمين المكتبة: «هل رأيت ذلك الكتاب من قبل؟»، قال لها ببساطة: «لا، لم أره من قبل»، تخرج رأسها من المكتبة لتراقبنى، وأنا لا زلت أتحدث مع الزميل الآخر.

أسرعتْ بخوف نحو الكتاب وأغلقته، وأمسكته على عجل، وها هى تصطدم بى، وتقول بفزع كأنما تُحدث شخصًا مريضًا بالفعل، أن أتخلص من ذلك الكتيب، وأنها قد سألت الجميع وجاوبوها بالنفى، وبعدم معرفتهم بذلك الكتيب الكبير صاحب الرسومات العجيبة. «كتب للسِّحر». آخذه وأذهب إلى منزلى، وأفتحه كأنى لم أطالعه من قبل.

أوقف شبيهى العرض. أوقف الصورة. وقال لى:

هل علمت الآن ملكية ذلك الكتاب تعود لمَن؟

قلت متوسلًا:

لا أتذكر حقًا، أقسم لك لا أتذكر شيئًا.

حاول أن يربت على كتفى ويواسينى، ولكنى فزعت وابتعدت عنه بالطبع، حرَّكت الكرسى بعيدًا عنه، تعجب إلى ذلك الأمر وقال:

هل تريد رؤية المزيد، أم اكتفيت؟

قلت متوجسًا خيفة وشفتاى ترتعشان:

هل تملك المزيد؟

أووووه أملك كل شيء عنك! هل تريد المشاهدة؟

***



رأيت نفسى..

لا!!..

من فضلك أدِر تلك الشاشة عنى، لا أريد رؤية ذلك المشهد

- حبيبتى الأولى ترمى بدبلة الخطوبة فى أعماق البحر، وتقول إنها تريد شخصًا قادرًا على الصرف عليها، شخصًا يغنيها عن العالم أجمع، وإنها ملَّت من فقرى الشديد، وإنها لن تستطيع تحمل المزيد، حتى دبلتى الـ«فالصو»، قلت له «إنه لا يستطيع تخيل العالم من دونها، أريد البقاء معها»، قالت بنفور: «لم أعد أرغب بك، لا أملك شيئًا أستطيع إعطاءك إياه، اذهب وجِد فتاة تُناسبك»، وتمنت لى حظًّا سعيدًا. «لا عزيزتى، لا تتخلى عنى، أرجوك ابقى»، تركتنى وحيدًا وذهبت، لم أرنى من قبل أدمع، ولكننى دمعت بالفعل، ولم أنسها طوال سنين غابرة، حتى أتت زوجتى، لم أحبها، ولم أعطها ما تستحقه بالفعل، وأتعجب لماذا تتحملنى؟ لماذا رغم معاملتى السيئة؟ أشاهد نفسى: أثور، أغضب، وها قد أتت الفتاة الأولى، أحملها بيدى، حب آخر لم أره من قبل، جعلنى أكثر هدوءًا، حياتى مستمرة،

وأستمر بفقد الأشياء تباعًا, كيف حدث ذلك الأمر؟ كيف بلغت قسوتى إلى ذلك الحد؟ أجلس بجوارها على فراش الموت، ووجهى متجهم، صارم، بائس، سألت نفسى، هل لو كانت حبيبتى، هل ستظل تلك الملامح صارمة كذلك الوجه الكئيب أم أكثر رقة؟

***

غيَّر المشهد وكأنما هو قناة لا تعجبه، بقناة أخرى. أظهر داخلها بالطبع. أنا أظهر فى كل شىء، وشىء قاسٍ أن تشاهد نفسك داخل حياتك اليومية، قلت:

ألا يكفى؟ أغلق تلك الشاشة، ولنتحدث إذن.

قال هو، وهو يضع قدمًا فوق أخرى، بكبرياء وتعالٍ:

أنا مَن أقرر، سوف تشاهد معى فعلتك الأخيرة، التى وبسببها أحضرتنى إلى هنا.

استسلمت لرغبته، التى لا سبيل لرفضها؛ لأنى لا أعرف مدى قواه، لكنى أعترف بخوفى الشديد منه، حيث كنت موجودًا فور نشأته، منذ أن أتى من خلف الشاشة، وكان شبيهًا بالظل، وسار على الحائط بشكل بطىء وبشع، وتحول إلى هيئتى، ها هو يعيد لى مشهدًا فقدته، سقط من ذاكرتى، اتهاماتى المتكررة لزملائى بسرقتى، حتى لو كنت خارجًا من منزلى وسقطت حافظتى، سوف أذهب إلى



المدرسة وأقوم باتهام أحدهم، المشاهد تتوالى، لماذا يؤلمنى بمشاهد لا أحب رؤيتها؟ هل لو رأى الكائن الشرير نفسه، هل سيلعن نفسه، أو يلتمس لنفسه عذرًا، فقدت أشياء وأشياء، على مدار سنين حياتى، والمشاهد المتكررة. فى البادئ فقدان أبوىَّ، فلم أعتد الحزن إلا على تلك الحبيبة التى رمتْ دبلتى فى النهر، وفقدان فلذة أكبادى، وزوجتى، ليتنى قبلت بوجود أنثى داخل حياتى، وسلامًا على الوفاء، أريد شخصًا يذكرنى إلى أن أذهب إلى قبرى، وحينها سأدرك أنه لا فائدة منها ولا فائدة من تذكيرى.

توقف لحظة على مشهد:

أووووه أحب ذلك المشهد، ركِّز معى.

أنظر له بقرف واضح، وأدير نظرى نحو الشاشة، التى أقوم فيها بعمل مراسم، ما ذلك العبث؟ أضىء الشموع. أرسم على الأرض شكلًا غريبًا على هيئة مثلث، أسرد طلاسم ما، لا أكترث لذلك الأمر، ففقدان الذاكرة لا تعنى فقدان المبادئ، وأنا لم أخُن مبادئى مطلقًا. حتى لو ذاب مُخى، وأصبح لا شىء يُذكر، قلت له بغضب:

مَن يفعل تلك الأمور؟

أنت!

هُراء، أنا لم أفعل ذلك الأمر. هراء!

ينظر لى بدهشة عجيبة:



لقد اعترفت بنفسك أن كل المشاهد المعروضة قُمت بها.

إلا ذلك المشهد، لو على جثتى.

ومَن أحضرنى إلى هنا، أليست تلك الطلاسم!

لا يهمنى مَن جاء بك إلى هنا، وإن جئت بتاكسى، لم أستدعك، ولا أعتنى بالسحر يا هذا، يمكننى تصديق قيامى بالذهاب إلى مدرسة، شغفى لقراءة كتب السحر من باب العلم بالشىء. لكننى أرفض ممارسة مثل تلك الأمور.

قام ووقف منتصبًا، فأشار نحو النافذة، قائلًا:

انظر إلى الخارج، تعالَ هنا.

تناسيت رعشتى التى كانت من مفعول مرض البرد المعتاد، ووقفت أنظر لما يشير إليه، قال بهدوء:

لا يوجد بنى آدمين، البشر قد اختفوا، وستبقى أنت وحيدًا.

***

الساعة الآن الرابعة من فجر اليوم.

الشمس تبدأ فى الصحوان، وتستعد أن تصعد فى نفور خلف السحب التى وارتها خلفها، ولكن الآن الظلام فى ورديته الأخيرة، ويستعد للرحيل، لا يوجد بشرى واحد كما



قـال، مَـن ذا الـذى يسـير فى تلـك الآونـة؟

قلت له:

أمعتـوه أنـت؟ بالتأكيـد لا يوجـد إنسـان عاقـل يسـير فى الشـارع فى ذلـك التوقيـت.

قال ببساطة:

إذن فلتسـتعد للنـزول، وأن تراقـب بنفسـك، وأنـا هنـا فى انتظـارك، وبرجـاء لا تتأخـر.

أنظر نحوه، وأتامل ملامحه الكئيبة؛ ملامحى!

حتـى تـشرق الشـمس، سـوف أنتظـر حتـى تُـشرق الشـمس!

سـار بهـدوء وابتعـد عنـى، اقـترب مـن الحائـط؛ حائـط أصيبـت أوصالـه بالوهـن، والـشروخ معًـا، ثـم قـال دون أن ينظـر إلىَّ:

إذن سـوف تشـاهد معـى ماضيـك، ولا رجـوع فى ذلـك الأمـر، إن رغبـتَ فى البقـاء!

كلا لا أريـد رؤيـة ألاعيبـك، أنـا أعلـم مـاذا تريـد منـى ومـاذا تُخفى.

ينظر نحوى بدهشة قائلا:

أتشك بى؟ ألا تعلم أن غلطتك الكبرى هى الشك؟

لا أعلم ما هى كُنيتك. ولا أعلم من أين أتيت!

قال بأسى، وكأننى خذلته:



أووه، لا تتعلم أبدًا، ألم يأمرك الطبيب بألا تشك في غيرك، ولا تفرض نية السوء أبدًا؟

***

الساعة أصبحت السابعة من صباح اليوم.

أراقب الشارع الصامت..

بالفعل لا توجد أصوات سيارات عابرة، أو «موتوسيكل»، أو حتى دراجة، أين بائع الخبز الذى يسند قفص الخبز الممتد أمامه ليرينا قدرته على الثبات؟ قدرات خاصة يتمتع بها حاملو الخبز فوق الدراجات، يصل طول القفص إلى طول



سيارة «١٢٨» فيات أو سيات، لا أذكر! لا توجد أم تصطحب ابنها إلى المدرسة، ولا أب يرتدى منظارًا وينتظر أتوبيسًا ما، لا يوجد حياة فى الشوارع، تركت شبيهى، وهبطت على الدرج، أسير فى الشارع الطويل الممتد، الصامت، وكأن البشر هاجروا، وتركوا كل شىء، المحلات والسيارات وكل شىء يمت بصلة للحياة، ماذا حدث؟ قلت كمَن يُحدِّث نفسه:

ماذا وقع بهم؟

فجأة ودون سابق إنذار أجابنى شبيهى الذى يسير بجانبى:

بل قل ماذا حدث لك.

أنظر إليه متوسلًا أنْ أطلِعنى على الحقيقة ولا تُخفى عنى شيئًا. قال بالأخير فى هدوء:

مارست تعويذة ما، كنت تريد الوحدة، وها قد أصبحت وحيدًا بالفعل.

لم أمارس شيئًا، أنت تكذب.

يشير بأصبع نحو أحد المحلات المغلقة فيتحول إلى شاشة سينما عريضة ويظهر من خلالها هو، أو أنا! يمارس طقسًا ما، ويذبح يده كى تفيض دماء، ثم يجعل الدماء تسير برفق على ذلك المثلث المرسوم على الأرض، ويضع شاشة وبلاستر على يده؛ يدى! موضع ذلك الجرح. يقول كلمات غريبة، لا أعلم عنها شيئًا، ولم أدرسها فى كتب التاريخ. هل



هـى اللغـة المسـمارية؟ أو لغـة أخـرى؟ لا أدرى. أسرعـت بقـول:

هل أخفيت البشر؟

ينظر نحوى بتشفٍّ غريب ويقول ساخرًا:

لقد أخفيتَ نفسك!

***

لا بد لى من الثبات فورًا!

كيف أخفى نفسى يا هذا؟

أسرع قائلًا:

أعنـى انتقلـت إلى أرض أخـرى لا تحمـل بـشرًا عـلى سـطحها.. تحمـل آثارهـم فقـط، وأنـت الـروح الوحيـدة هنـا.

انفرجت ضاحكًا رغمًا عنى وأنا أقول:

وهل يوجد أرض أخرى؟

قـال بنفـاد صبر، وهـو يمسـكنى مـن ذراعـى ويتقـدم بى إلى المنزل:

لقـد أخـذت نسـخة مـن الأرض، نسـخة طبـق الأصـل مـن أرضـك، بمـا تحملـه مـن جـماد فقـط دون أحيـاء.

لا أفهم شيئًا!

يأخـذ نفسًـا عميقًـا، ثـم يُجيـب مثلـما كنـت أفعـل مـع التلاميـذ الصغـار؛ الأغبيـاء، قـال:



لقد نسخت أرضك دون أحياء، ولقد اختفت الحياة على سطح الأرض المنسوخة وما تبقَّى منها هو أنت!

لا يزال يمسكنى من ذراعى، ويُدخلنى أحد المنازل، كان بالطبع مغلقًا، فقام بكسر الباب بإرادة وقوة لم أشاهدها فى حياتى، كنت فخورًا به لعدة دقائق، وجدنا المنزل تقليديًّا، به أثاث وبواقى طعام فى المطبخ، فتح غرفة نوم أحدهم، كل شىء يعطى انطباعًا أنهم تركوا المنزل كما هو!

كان أحدهم يُدخن السيجارة، كانت موضوعة، احترقت ووصلت إلى نهايتها، إلى الفلتر! قال:

أأدركت الأمر الآن؟

قلت:

ربما تركوا المنزل وفروا.

أمسكنى بقوة أكثر، وهو يجرنى لتفتيش العمارة بأكملها، ولا نجد لها حياة بالفعل. وهبطنا وجلسنا على الرصيف، وأنا أقول بأسى:

ماذا نفعل الآن؟

قل ماذا تفعل.

ألست واقعًا معى فى تلك الورطة؟

ضحك ساخرًا وهو يقول:

لا يا عزيزى، سوف أعود مثلما كنت، سوف أعود



ظلًّا خلف الشاشة، أو خلف الدولاب، سوف أعود إلى عالم الأحياء فور معرفتك بالأمر، ذلك كل شيء.

هل ستتركنى هنا وحيدًا؟

لقد اخترت الوحدة منذ زمن، أنت بالفعل وحيد.

أشيح بوجهى عنه، وأنا أقول بحزن:

الوحدة مفيدة، على الأقل سوف يتسنى لى الدخول إلى محلات الأكل، وأتبضع قليلًا منها، وبالمجان!

لا تنسَ فتح الثلاجات للحفاظ على الطعام. ذلك طعامك الذى سوف يقودك إلى الهاوية.

أنت بائس حقًّا. لماذا تحبطنى؟ «هو أنا ناقص إحباط».

قال وهو يطرقع إصبعه مثلما أفعل:

عزيزى، ذلك عالمك الآن، اصنع تاريخك بنفسك، فلا تحتاج لأحد من بعد اليوم!

طالما أنا بعيد عن أرضى، فمَن المستفيد إذن؟

تمتلك الآن الجواهر والذهب والمال والطعام والشراب، فماذا تريد أيضًا؟

أقول بتلقائية:

شخصًا ما أتباهى بثرائى أمامه.

بالطبع ليس أنا.

أى شخص.



ضحك ساخرًا كعادته، ثم قال:

برأيك، هل ستستمر إلى النهاية؟ تلك النسخة سوف تُزال عما قريب.

ارتعدت، وتوترت أوصالى، وأنا أتساءل:

ماذا تقصد؟

قال بعدما نجح فى إرعابى مجددًا:

نسخة الأرض هذه لن تستمر لأسبوع واحد على الأقل! لا بد لى من إبلاغك ذلك الأمر!

وبعدها؟

ستأكلها الشمس. أو سيُذيبها نجم.

سأموت محروقًا إذن.

الجزاء من جنس العمل!

***



دخلنـا أحـد المنـازل.. الفارغـة مـن الحيـاة.. قـال لى أن أنظـر إلى الحائــط.. فتُضــاء شاشــة مجهولــة لا أدرى أيــن مصدرهــا، كشاشــة الســينما، أضــاءت الحائــط بأكملــه, ويظهــر البائــس؛ ومَـن سـواى؟! كنـت داخـل المطبـخ عندمـا هتفـت زوجتـى أن أحــضر، وهــى تــئن، وأســمع صــوت توســلها أن أحــضر.. كنــت فى المطبــخ، أعــد لهــا الحســاء الســاخن، كنــت أحــاول أن أقــوم بتركيــب الأنبوبــة وأشــعل «البوتاجــاز», ولم أفلــح، تبًّــا، هــل تركـت العـين تضـخ الغـاز مـن الأنبوبـة، لا، بـل تركـت الأنبوبـة ذاتهـا فى منتصـف المطبـخ، المطبـخ خـالٍ، أرى نفسـى مـن طـرف



الشاشة أرحل وأتدحرج على السلالم، تاركًا... لا.. أطفئ تلك الشاشة. كيف دخلتِ يا سارة إلى المطبخ؟ كيف لعبتِ بذلك المفتاح؟ بل كيف أمسكتِ الكبريت ورائحة الغاز منتشرة بكثافة؟!

أغلق ذلك الشيء فورًا!

لا ألتفت نحو الشاشة، أدرت لها ظهرى، فتظهر مرة أخرى أمامى، على تلك السجادة القماشية السوداء، الانفجار أطاح بها. وأشعل كل شيء.

***

أعلمت الآن مَن المُتسبب فى موتهم؟

كنت أخفى وجهى بيدىَّ، وأجهش بالبكاء العارم، وشبيهى معدوم الإحساس، يراقبنى! قلت وأنا أنظر إليه دامعًا، متحسرًا على فِعلتى:

قل، هل أقتل عائلتى يا رجل؟ ائتِنى برجل عاقل ناضج يفعلها.

قال بلا مُبالاة:

صديقى، لقد تسببتَ فى موتهم، وتلك هى الحقيقة، ومصيرك مثلهم، بل أبشع منهم.

كلاااا، أنا لم أفعل شيئًا، تركى للأنبوبة بمنتصف المطبخ يُعد سهوًا، وكنت سأعود فورًا لأعد لها الحساء.

لكنك لم تفعل.

ذهبت لأحضر لها الدواء.

وقف وأمسكني من ذراعي برفق، وخرجنا من ذلك المبنى، ثم قال بهدوء:

أنت مسئول عن الأسرة، والذي فعلتَه يُعد إهمالًا كبيرًا، تسببت في ضياع أسرة بأكملها.

قلت وكأني أدافع عني نفسي:

لم أكن أقصد! لو علمت ذلك الأمر لكنت شنقت نفسي فورًا.

ضحك الأخير وقال:

بل فعلت الأسوأ، ألا تصدق قيامك بأمور السحر؟

لم أقم، أقسم لك لم أقم بشيء من ذلك القبيل.

أوقفني بمنتصف الشارع الطويل، تقريبًا كنا بـ«وسط البلد»، داخل القاهرة، الفارغة تمامًا من الحياة.

اسمح لي بعرض ما فعلته، والسبب الرئيسي لإحضارك ها هنا.

***





هل تريد رؤية منزل حبيبتك القديمة؟

قلت بأسى:

وما فائدة ذلك الأمر، طالما كدة كدة سأموت؟

على سبيل الرفاهية والمتعة والتجديد. أريد منك أن تتمع بكل لحظة متبقية فى حياتك يا رجل.

أشحت بوجهى وأنا أسير معه فقلت:

فليكن.

اتجه نحو منزل؛ منزل جارى غير الودود بالمرة، وأحضر مفتاح سيارته؛ شبيهى يعلم ما يكون داخلى فعلًا. كنت أود قيادة سيارته غالية الثمن، حشرنا أنفسنا داخلها، هو الذى يقود لأننى لا أعرف، تخطى الشوارع والميادين التى كنت أشعر من خلالها بالاختناق المرورى، لا أحد يسير، فتلك أصبحت أرضى وحدى، كما يقول شبيهى، نسخة منها، حقيقة قاربت على الزوال، ذهبنا إلى الجيزة فى مدة قصيرة جداااااا، بالسرعة القصوى التى سمحت بها السيارة، أوقفنى أمام عمارة، قال شبيهى إنها عمارتها، صعدنا إلى الطابق حيث تسكن، فتح الباب، بل اقتحم الباب! وبالطبع لم يكن هنالك أحد، دخلت فورًا ودون إرادتى لغرفة النوم، ووجدت تلك البطانية تحتوى... لا أحد، قلت فى سرعة:



هل كانت هنا؟

بالطبع، وتلك النسخة الأخيرة، لو رجعنا إلى زمنك الأصلى لوجدناها نائمة الآن على الفراش.

الصور الموضوعة لها ولزوجها المتجهم، يبدو أنهما امتلكا صبيًّا، وتلك هى صورته، قلت:

هل تعلم شيئًا عنها؟

أومأ بعنقه يمينا ويسارًا بالرفض وقال:

لا أعلم شيئًا لا تعلمه، ولا تنسَ أنا ظِلك، ولكنى أعلم أشياء عن كنه ذلك المكان، الذى سوف ينتهى خلال أيام أو ساعات لا أدرى.

أرجوك لا تُذكرنى.

مشَّطت المكان، بحثت هنا وهنالك، قال شبيهى لأول مرة:

عن ماذا تبحث؟

أجبته بتلقائية:

هاتفها المحمول بالطبع؛ العزيزة «إيمان مبروك»، حبيبتى السابقة يا رجل.

ولماذا؟

ابتسمت لأول مرة فى سخرية وقلت:

تلك هى المرة الأولى التى تطرح فيها سؤالًا.

ينظر نحوى بصرامة فى انتظار إجابة. قلت:



هاتفها المحمول وحديثها مع الآخرين عن حياتها، بالتأكيد لها صديقة لعينة تخبرها بأسرارها وما تُخفى.

لقد وجدته أسفل مخدتها، ها هو. برنامج المحادثة الشهير. قال هو:

ألا ترى أن ذلك العمل غير أخلاقى بالمرة؟

قلت بهدوء:

وما فعلتَه معى، هل يُعد أخلاقيًّا؟

كنت أرغب فقط بتغيير النمط، كنت أريد لك رؤية منزل حبيبتك، لكى تشكر ربك على نعمة زوجتك! قبل أن تندثر وتنسى، وتنصهر مع تلك الأرض.

أشكره دائمًا وأبدًا، الفضول يقتلنى يا رجل. انظر ها هى تُحدث شابًّا آخر، البائسة «إيمان» وتُفضفض له عن حالها الكئيب، أرأيت، رغم زواجها، تخونه مع صبى آخر! تبًّا لها تلك الأنثى التى...

قاطعنى بصرامة:

هيا، فلنذهب من هنا.

أمسكنى من ذراعى مرة أخرى، وأخذت هاتفها معى مثل الأطفال وأخفيته داخل بنطالى، لا أعتقد أنه يأبه كثيرًا، وسِرنا فى الشارع مُجددًا. قال هو:



ذكِّرنى ماذا كنا سنفعل، أَغْنِى فى منزل حبيبتك السابقة.

كنت ستعرض لى أعمالى اللعينة، وعن أشياء لن أصدقها بالطبع.

أه أه، تذكرت.

ههههههههههه، هل انتابك فُقدان الذاكرة مثلى؟ هههههههه.

لماذا أرى كلبًا أسود اللون يظهر خلفنا؟ هل يطاردنا؟

هل هو شريط من الذكريات القديم يوشك على الظهور من جديد؟ تبًّا، لا أريد رؤيته، لماذا يظهر وكأنه معنا؟ طرحت سؤالى على ظلى الذى قال:

ذلك الكلب هو حدث لا يُنسى مطلقًا، فما الذى تراه مجرد ظِل فلا تخف، لا تكترث، ولا تُعطِه أكثر من حقه. هيا كى نسير!

***





يظهر على الشاشة أحد المبانى الكبيرة..

صورة بحجم المبنى، وللصدفة لن يراها سواى، أنا وشبيهى بالطبع. ذلك اليوم! نعم تذكرت لك اليوم، ومن البداية، البداية فقط عندما ذهبت لرؤية صديق لى فى حارة شعبية لا داعى لذكرها، وبعد السلامات ووو... أعطانى مشروبًا عجيبًا، جعل عقلى يغيب، ويعقد الأمور أكثر وأكثر، كنا داخل صالته، صالة منزله، يعيش وحيدًا، لقد أصبحت فى حالة سُكر، هذا ما تقوله الشاشة، وحقًّا أذكر بعض الرتوش، وهنالك، أحضر كتيبًا عجيبًا، قال لى أن أقرأه، وأنا كنت أضحك، وأهرول، ولا أقدر على الوقوف، فجلست أرضًا، وقلت له نحتاج إلى شموع، فقال صديقى البائس: «هل ستفعلها؟ هل الجن سيحقق لنا الأمانى؟»، قلت: «سنرى». أعددنا الطقوس المناسبة التى كانت موجودة داخل الكتاب، كيف لا أرفض ذلك الأمر؟ ماذا أعطانى ذلك اللعين؟ لقد أطفأ الإضاءة، وبدلناها بهذه الشموع، وقد بدأت الطقوس! ثم شرارة زرقاء حدثت داخل المثلث الذى رسمته على تلك الأرض، الشرارة أضاءت المثلث بأكمله، هنالك من يتحدث منها، ثم حدث شىء بالطبع لا أذكره. لقد فقدنا الوعى نحن الاثنين، وعندما أفقت أخذت الكتاب، وصديقى لا يتذكر ما حدث له، وأنا أيضًا، أحضرت حقيبتى ووضعت بداخلها



الكتاب الكبير، ربما لا أذكر بعدها ذهابى إلى صديقى الوغد. أطفأ شبيهى الشاشة وقال بثقة:

أعلِمتَ الآن مَن وضعك داخل ذلك المأزق؟

قلت فى سرعة:

لم أكن أقصد بالطبع، لقد كنت فى حالة تُشبِه السُّكْر كما ترى.

ومَن جعلك فى تلك الحالة؟

صديقى!

لا، بل أنت، أنت مَن بدأ كل شىء، وتود رمى اللوم بأكمله على أحد غيرك.

لم أقصد، ولم أكن مُدركًا لشىء.. لم أكن فى وعيى بالمرة!

***

تذكرت وأنا أجلس على ذلك الرصيف ومعى شبيهى «الظل» مسلسلًا أجنبيًّا، مسلسلًا كان مثيرًا بحق، (Sliders)[٣] كنا نطلق عليه فيما مضى «الحلقة الأجنبية»، كلمة اعتاد قولها الشعب المصرى، وتعددت المواسم لذلك المسلسل،

٣ تحكى قصة المسلسل عن شاب فى مقتبل عمره ماهر فى العلوم والرياضيات، يتوصل لاختراع غيَّر مجرى حياته؛ ريموت كنترول يستطيع به أن يفتح ثقبًا أسود بين العالم الآخر، وينزلق إليه ويكتشفه وقد دخل معه فى هذا البروفيسور الذى يدرس له فى الجامعة وحبيبته، وعن طريق الصدفة دخل معه مُغَنٍّ لا يعرف أى شىء، القصة مليئة بالإثارة والتشويق والكوميديا والخيال.



حيث كان ما بين عامَى ١٩٩٥ و٢٠٠٠ . خيال علمى بحث، أعيشه باختلاف قليل، أننى داخل نسخة الأرض وأنا أعيش فى نسخة هالكة، لا أناس غيرى، لا حيوان، لا شىء مطلقًا، بعد ساعات من الزمن، لا أدرى! وظلى هو الآخر لا يدرى الموعد المحدد لتفتيت تلك الأرض، أظهرت هاتف حبيبتى الأولى، وأخذت أبعثر فيه، قال شبيهى بغضب:

تعيش فى ساعاتك الأخيرة، ورغم ذلك تتجسس! يا لك من بائس!

قلت بهدوء:

ما يدفعنى هو الفضول يا صديقى، ولا شىء غيره. لقد رد لها بقدر الصاع صاعين، وأصبحت تعيش تعيسة، رُزِقت بولد وفتاتين، وتكره حياتها، لقد أذقها المرار ذلك الرجل.

وما شأنك أنت؟ لقد افترقتما منذ أربعين سنة، أو أقل، لا أذكر، لكنها مدة لا بأس بها حتى تتناساها.

قلت ساخرًا:

انسَ ها ها ها ها، لقد رمت آخر طوق للنجاة فى ذلك النهر «خاتم الخطبة»، وما تبقى منى هو ما تراه الآن، مجرد شخص بائس كئيب، تسبب فى موت أعز من كان يملك، كل هذا بسبب هذه اللعينة!

قال شبيهى فى صرامة:



لا أرى سوى لعين، صبت الكهولة تعاستها على وجهه وحياته، وأصبح يتمتع برذالة العمر.

قلت له:

ما فائدة تلك الكلمات، وما تبقى من حياتى مجرد ساعات قليلة؟ أرى فيها رجوع حقى أخيرًا.

قال الأخير وهو يوقفنى بقسوة من ذراعى منتصبًا أعلى الرصيف:

ارمِ ذلك الهاتف جانبًا، أو حطِّمه، يكفيك ما علمت.

قلت له بشغف:

ماذا الآن؟

فتح باب السيارة، وحشرنا داخلها أجسادنا، ثم قال:

سنعود إلى منزلك.

ولماذا منزلى؟

فتح باب التابلوه، وأخرج منه بعض الصور، بالتأكيد الصور كانت تتحرك وتمتلئ بالحياة. قال:

تلك صور حبيبتك الثانية، ألا تذكرها؟

ما هذا؟ تلك الفتاة أذكرها، أذكرها جيدًا، تُدعى «دعاء»، التى أحبتنى بكل صدق، ذلك ما قالته، واعترفتْ به أمامى، لقد... ما هذا؟ ماذا تفعل؟

لقد تزوجتْ برجل آخر، تلك الفتاة رقيقة للغاية،



لا تتوقع منها أن تعامل رجلًا بكل هذا الحقد، لقد كانت بالطبع الصور تنبض بالحياة، تبًّا لى! لقد كانت السبيل الوحيد للخروج الآمِن من حب حبيبتى الأولى، لقد فعلت معها كل شىء فعلته معى الأولى، من بطش وإيذاء لُغوى، من إهمال، من عصبية أخرى، جعلتها تتعلق بظلى، ومن ثَمَّ تركتها ببرود شديد، رغم أن أهلها تمسكوا بى وعاملونى بلُطف شديد، ولو علموا كيف كنت أعامل فتاتهم المدللة، لجزوا عنقه بكل رفق وكل سادية. قال شبيهى:

أنتَ لستَ ملاكًا.

لم أعره انتباهًا، وأنا أطالع الصور، الصورة الأولى كانت فى زفاف الملاك الهائم، كانت صارمة الملامح، مثلى! متجهمة، مثلى!

وفى منزلها.. ماذا فعلت؟

قلت له أستجديه أن يخلصنى من ذلك المأزق:

ليس ذنبى، هى مَن أحبتنى؟ هى مَن قررت تعاسة لحياتها الآتية، قلت لها مرارًا إنى لا أحبها، وإنها سوف تعيش فى مرارة، تعساء نحو حب ميت، لا تستحقه، بل تستحق مَن هو أفضل منه.

ولا زالت تحبك. مثلما أنت لا تزال تحب الأخرى، وتعبث بهاتفها الآن.



أوقف السيارة فجأة وقال بحزم:

ألا ترى؟ كل مأزق وقعت فيه، تُسرِع بالتخلى عن مسئوليته بالكامل، تقول لا ذنب لى. زوجتك، ضحَّت بسنوات عمرها فى سبيل إرضائك، وماتت وهى تحاول خدمتك أيها التعس.

قلت بحزن عميق:

أليس معك صورة نهايتى؟ أريد الخلاص.

ضحك، وهو يشعل الموتور من جديد، والسيارة تتحرك:

معى الماضى بأكمله، ولا أدرى شيئًا عن المستقبل! ذلك فى علم الغيب.

كيف يحاسبنى على أخطاء لم أرتكبها؟

كيف بعثر أوراق الماضى أمامى دفعة واحدة؟

***

أرى «دعاء» الآن عبر شاشة بأحد المبانى، تسأل عنى زميلتى المصونة «مدام هالة»، أحضرت لها فنجان قهوة من البُن الخاص بى، من درج مكتبى، أيتها اللصة! كيف دسَّت يدها فى درج مكتبى وأخذت كيس «اللبن»؟ أخبرتها كل شىء عنى، كيف أصبحت حياة «بدر» بعد فراق زوجته وبناته؟ كيف يعيش وحيدًا داخل منطقة لا يعيش فيها سوى القطط الضالة والفئران! هل أراها تبتسم، بالفعل؟ «دعاء» تبتسم، تلك السادية! تبتسم لما حدث لى، تشكرها،



وتذهب فى سعادة، قال شبيهى فى تلك اللحظة:

ألا ترى شيئًا مألوفًا؟

قل لى أيها المتذاكى.

ابتسم أكثر قائلًا:

فعلت ما فعلته عندما رأيت قصة حياة حبيبتك الأولى.

لكنى لم أبتسم، ولم أفرح لما حدث لها، هنالك فارق كبير، رجوع الحق لأصحابه يُسعد المرء.

لا تلُمها؛ فالوضع أسعدها أيضًا!

وصلنا إلى منطقة تعرفها ذاكرتى السابقة، تعلمون الزهايمر و«عمايلو». الآن اتضح الأمر، لقد كنت فى بداية حياتى، كمدرس تاريخ مُحنك، وخبير أيضًا، أفعل ما لا أحبذه؛ إعطاء دروس، كنت شابًّا فى مقتبل العمر، لا يلومنى أحد، وذلك المرتب لا يستطيع إطعام قطة! ذلك المنزل جئت إليه لأعطى بعض طلاب المرحلة الثانوية حصص التاريخ، كنت حينها أدرس للصف الإعدادى دفعة منهم فقط، وأمام المنزل، بجوار الباب، قلت:

لا أتذكر حدثًا مهمًّا، حصل هنا.

يبتسم قائلًا:

بالطبع يوجد حدث جَلَل حدث هنا.

لا توجد شاشة كالعادة، لقد ظهرت أنا كشخص من لحم



ودم، كتجسيد هيلوجرامى، أبدو شابًّا نوعًا ما، وهنالك ذلك الطالب، لقد لطمته أمام السادة، أقصد الجيران، ذاكرتى انتعشت، ذلك الطالب هو على زين العابدين، الطالب الفاشل فى كل شىء، لا يحفظ، ولا يهتم بآداب الواجب، لا لقد بلغ عنفوانى ذروته، كيف ألطم الصبى أمام العامة، وأمام أبيه وأمه، وأقول له أمام الجميع إنك غبى، ولن تفلح، ومن الأحسن أن تسحب ملفك من المدرسة، وتجلس لخدمة والدتك فى المطبخ، قلت فى لهفة:

ماذا حدث له؟ هل قُتل أم...

ششششش.. لم يحدث له شىء. وراقب نظراته لك جيدًا.

كان الفتى ينظر إلىَّ بِكُره واضح، ونقمة، مع وعد بالانتقام، تغيرت الصورة، تتبدل بأخرى!

الفتى أحضر مسجلًا (ووكمان)، اةةة، يا للبائس، كنت أقوم بتسريب امتحان الصف الثالث الإعدادى لبعض الطلبة، فى تلك الحصة.

وأسرع ذلك الشاب، إلى مدير المدرسة، وقام بتشغيل المسجل، علمت الآن سبب تركى لتلك المدرسة، وذهابى لأخرى، لم يبلغنى المدير، لقد كان قرارًا وزاريًّا بنقلى، علىَّ أن أقوم بتدريس مادة التاريخ للمرحلة الابتدائية، هكذا علمت. قلت:

أخذت جزائى بالطبع.

ذلك لم يكن كل شيء.

ماذا حدث؟

ذلك الفتى، تغيرت حياتى بالكامل نتيجة معاملتك القاسية معه وتوبيخه أمام العامة وأصبح...

قاطعته بصرامة:

ألا تكف أبدًا، غيّر الموضوع من فضلك. لقد سئمت...

ينظر إلىَّ طويلًا. ويقول:

حسن، سوف أخبرك بشيء بسيط، ذلك الفتى أصبح بائعًا للأنابيب، وأنت قمت بشراء الأنبوبة الأخيرة منه، ولأن ذاكرتك أصبحت هشة فلم تتذكره، الأنبوبة التى تسببت فى وفاة عائلتك، ولقد فتح غطاء الأنبوبة قليلًا لغرض ما، ولم يكن لينساك أبدًا!

***

هل لك بإعطائى القائمة بأكملها التى تحمل أسماء المنتقمين بأكملهم، وبأخطائى التى لا أتذكرها دفعة واحدة، أرجوك! فلم أستطع التحمل، فضغطى قد ارتفع، ويداى ترتعشان، وقلبى أصبح ضعيفًا، ولا يستطيع إيصال الدماء إلى مُخى، عيناى أصبحتا واهنتين، أفتحهما برفق لأطالع تاريخى الأسود، كل



شيء أراه هو أنا! وأحداث تدور حولى؛ أنا بطلها، بطلها الوغد.

قال شبيهى فى يأس:

أنت بائس، حياتك عبارة عن خيط مربوط على شكل دائرى، شيء تفعله ينصب ويعود إليك مجددًا!

قلت بغضب:

وماذا عن هؤلاء التلاميذ والطلاب الذين قضيت عمرى بأكمله أعلمهم، أفنيت عمرى من أجلهم وأنا أصب كتاب التاريخ داخل أدمغتهم.

لأنك لم تجد شيئًا أفضل تفعله.

باستنكار قلت:

فعلت ما أحبه وأتقنه يا رجل!

قال وهو يخرج من باب السيارة:

هيا بنا.

فتحت باب السيارة الفخمة التى كنت أتمنى امتلاكها يومًا، لم يعد لها قيمة وأنا أقترب نحو النهاية، فكل شيء لم يعد ذا قيمة، رميت هاتف حبيبتى الأولى أرضًا ودهسته بقدمى الواهنة، أنظر إلى نفسى عبر مرآة أحد المحلات، رجل عجوز، ما يشعره بشبابه، هى مهنته، وتدريسه لكتاب التاريخ، حقًّا! أذلك الأمر يشعرنى بوجودى، وبعودة الشباب؟ تاريخ ملوك وتاريخ الوطن العربى، تاريخ جمهورية مصر



العربية، تاريخ محمد على وأبنائه، وإنجازاته، وانتشال مصر من حالة الفوضى إلى النظام، فترة رؤساء آخرين، حروب العرب بأكملها، الدولة العمثانية، تاريخ الحبشة، المغول، صلاح الدين وقطز! جغرافيا الكرة الأرضية بأكملها، ألا يستحق كل هذا تقديرًا مناسبًا، وأن يتلاشوا عيوبي؟ القسوة أحيانًا تفعل المعجزات بالفرد، تنتشله من عالم الضياع إلى عالم النجاح، والفخر والعزة، سيدنا يوسف «عليه السلام» بسبب قسوة إخوته أصبح عزيز مصر، كل نبى اختُبر بقسوةٍ ما لاختبار قدرة تحمُّله على الصبر، وذلك الشاب بائع الأنابيب لو لم تكن بذرة الفساد داخله لما أصبح على تلك الشاكلة التعيسة، فهنالك من يأخذ الأمر على كرامته، فلا يسمح لنفسه بالفشل والفضيحة، ويثبت لأهله ولجيرانه أنه تفوق على مُعلمه نفسه بالنجاح، وعليه أن يثبت لمعلمه أنه الأجدر والأصلح، بل يمكنه أن يكون أنجح من معلمه نفسه، وبذلك الأمر أكون قد أتممت مهمتى، جعلت أحدهم يشعر بالنجاح، وتلك الفتاة التى أقسمت لها بأنى لا أحبها، لو لم تكن بداخلها بذرة العناء لم اختارتنى، تحب التعب، المسكنية، وتعشق الغرور، لقد استمعت لها خلسة من خلف أحد الأبواب وهى تُحدث رفيقتها وتقول أنا لا أنحنى لأحد.. أنا أحب نفسى للغاية، أكتفى بنفسى، آنس معها، لا أحتاج لرفقة رجل ما، حتى لو أصبح زوجى، لن يربطنى ذلك الخاتم للأبد، سوف أدس عبر أذنه مقولة واحدة،



سوف أجعله يحفظها عن ظهر قلب، يمكننى الرحيل لو شعرت بالملل، يمكنك بعدها أن تصبح غريبًا عنى، أو لتكن العلاقة ضمن الصداقة، أو يمكنها أن تصبح أخوة، وحينها سوف تظن أنك مثلك مثل غيرك، لقد أضعت الفرصة، عزيزى! لقد أشعرتنى بالملل، لقد أوقفت أحلامى عند تلك النقطة الروتينية القبيحة، التى لا يمكن للقطار أن يُكمل السير بعدها، فيُصاب بالعطب، ويوضع بمحطة الصيانة كإخوته، ويوضع خلفه، ويركن للأبد حتى يمرض بالصدأ، لا أحمل وزنًا للرومانسية، ولك أن تعلم ذلك الأمر، لا أحب أى رجل، فقط لو جاء من الفضاء، لا تعتقد بأنى فتاة أصيبت بالجنون، نفسى ولا أدرى كينونتها، أخشى أن أمتلك فجأة وأصبح بعدها ناسيًا منسيًّا، أصبت منذ سنين بداء الأفلام العربى الكلاسيكية، أكره وضع الزوجة التى تتقبل تلك الأمور، التى تتحمل ويزداد الثقل حتى يُصاب ظهرها بالعطب فتسقط، لا أحب السقوط، سوف أحيا مبتسمة، أخشى الوحدة للغاية، فى الواقع أكرهها وبشدة، تقبلت معظم الرجال، وقعوا جميعًا فى حُبى، وتركتهم عندما علمت دخولى ذلك القفص مثل العصفور، وأكون ملكية خاصة لأحدهم، فأتركه بعدما تعلق بظِلى الأخير وقد أيقنت وتأكدت أنه لن ينسانى، نعم لا أسمح لنفسى التى أعشقها أن تتعلق بظل أحد غيرى، لا ألتفت إلى الزميلات التى لحقت بذلك القطار المُلقب بالزاوج، ها ها ها أتعلم ذلك



الأمر يضحكنى كثيرًا، عندما رأيتهم جميعًا يفتحون النوافذ لاستنشاق الهواء الطلق، أحدهم قذف بنفسه من داخل القطار، أخذت قرارًا جريئًا أن تختار لنفسها حبًّا مريحًا لها، وليس لإرضاء الأهل، الوضع معقد، لنترك ذلك الأمر وننحيه جانبًا، ذلك المدعو «بدر» فإنه سوف يصبح ملكية خاصة لى، سأجعله يتعلق بظلى، ومن ثَمَّ سوف أتركه! كجثة هامدة، فأنا لا أرفض أبدًا، لذا اختارتنى التعيسة، وتحدت روح الأنثى داخلها رجلًا لا يصلح للعلاقات العاطفية، ورجلًا قد سمع حديثها مع رفيقتها، فانقلبت المعركة التى لا تعنينى لصالحى، دخلت معركة خاسرة وقد انهزمت من أول جولة، لذلك تعلقت هى بى إلى آخر يوم فى حياتها، وذلك ليس ذنبى بالمرة، فقد حذرتها مرارًا! إنما حبيبتى الأولى لقد رميت لها قلبى كى تدهسه بقدمها فكان الذنب ذنبى منذ البداية، والقدر لا ينسى على رد الصفعة حتى لو لم يشعر المظلوم بها، الله لا ينسى، والقدر يحقق العدالة. أما زوجتى.. فقد أحببتها بكل صدق. ولكنى لم أقدر على إخراج تلك المشاعر لها، فذلك هو أنا، وهذا هو اختبارى. أرى نفسى على اللوحات الإعلانية، أقوم بدس الملح داخل الشاى وأنا طفل، لأبى، الذى تعكر وجهه وأخذ ينهر أمى، فقالت: «قد نسيت ووضعت لك الملح بدلًا من السكر»، معركة خشيت التدخل فيها لبطش أبى، ولصفعة لم أنسها لأمى، جعل خدها جمرة حمراء بسببى، لا أعترض وأنا أشاهد تاريخ حياتى الكئيب،



يمر من أمامى، وقفنا أمام المنزل وعلى حافة الباب قلت لشبيهى:

ماذا الآن؟

قال هو:

انتهى كل شيء، لقد أتممت دورى، سوف أتركك لمصيرك.

أمسكته لأول مرة من ذراعه بكل قوة وأنا أقول بغضب:

انتهى دورك، كيف؟ هل أظهرتَ قُبحى أمامى، وبسهولة تتركنى وتذهب وتهرب وتختفى، لن تذهب إلى أى مكان، ستظل معى، مصيرك من مصيرى.

نظر إلى يدى الملتصقة بذراعه بدهشة قائلًا وهو ينظر نحوى:

لم تفهم بعد. أنا مجرد ظل، أنا الوحدة ببشاعتها، أنا جانبك المظلم، أنا بشاعة مواقفك أمام البشر، أنا ذنوبك، أنا الجانب الذى تخشاه فى حياتك. وتخاف أن تقترب منه.

أنظر إليه بدهشة، فما أراه هو جسدى، مادى، من لحم ودم، كيف أصبح ظلًا، وكيف أصبح جسدًا، أسرع يقول بهدوء:

انظر إلى الأمام. وراقب ظلك الممتد!



بالفعل كان ظلى ممتدًّا، كان هو يتمدد ويلتصق بالأرض، ظلى، تحول إلى ظلى فقط، صرخت بكل ما أوتيت من قوة: «لاااااااااااااااااااااا».

***

لقد اختفى شبيهى.. وسِرت حتى نسيته تمامًا.. وذاكرتى غير قادرة على التذكر، هل كان موجودًا بالأصل؟! سِرت وأنا أراقب أفعالى على مدار السنين.. التى ماتت خلفى! توقفت للحظات لأراقب مشهدًا مشهدًا، يبدو مريحًا كثيرًا لمشاعرى، طبع على أعلى بناية!

***

جلست فوق الرصيف مثل الأطفال، وأنا أضم ركبتىَّ أمام صدرى. وتنحنى على شفتىَّ ابتسامة صادقة. يوم جاء ذلك الشاب وطرق بابى، أمام التلاميذ، لم أتذكره فى بادئ الأمر، ابتسم هو، وهو يصافحنى بكل احترام وود قائلًا:

أنا تلميذك النجيب؛ «محمد وفيق»، ألا تتذكرنى؟

انتبهت له وأنا أقوم بتفحصه جيدًا، يبدو مألوفًا، لكن ذاكرتى لم تُسعفنى. لذا قلت:

لا، اعذرنى يا ولدى، ذكرنى بك، هنالك عطب داخل جُمجمتى فى تذكر الأشخاص.



ضحك الشاب، الذى كان يرتدى حلة أنيقة غالية الثمن، لو كان بسن الثالثة والعشرين لكان الأمر مقبولًا من حيث الشكل والهيئة، قال هو:

لقد كنت معلمى، كنت حينها فى الصف الأول الإعدادى، أعلم أن تلاميذك كثر وأنك لا تستطيع تمييز أحدنا، لقد كان هناك شىء مميز بى على الأقل؛ فقد كنت أشعر بأنك قد مللت من طالب ذكى مُحب للاطلاع، يذهب فى أثناء «الفسحة» إليك ومعه كتيبات تاريخية قديمة كنت تنظر لها بكل انبهار، ومن ثَمَّ تقول لى من أين أحضرتها؟ فأقول لك من غرفة أبى، ومن بعدها كنت تقرأ الفصول، وتُعيدها على مسامعى لعدم قدرتى على فهمها، كنت حالة خاصة جدًّا، هذا ما قلتَه لى، كنت ترانى مميزًا، وحبى للاكتشاف فاق كتب الوزارة بمراحل.

وهنا صمتُّ، ويجب أن أصمت لأنى تذكرته أخيرًا، ذلك الفتى كانت النواة التى فجَّرت داخلى حب الاكتشاف ودراسة الكتب القديمة، كتب التاريخ المنسية المندثرة، التى لا يعلم عنها أحد شيئًا، جعلنى فى ذات مرة أسافر إلى مدن الجمهورية للاطلاع على مصادر الكتب، وتيقنت منها، مما جعلنى أزداد فى تعليم الأطفال، وأتخطى كتب الوزارة السطحية، كانت لى طريقة فى إيصال المعلومات، كنت أمثل،



أمثال أبطال العرب وهم ينوون الغزو واستعادة الأراضى المنهوبة، كنت أقول لكل منهم أنتم وتاريخكم أقوياء لا تنحنوا لأحد! استعدت رشدى وأنا أقول للفتى:

تذكرتك. وذلك لو تعلم أمر ليس بيسير، كنت طالبًا ذكيًّا بالفعل، لم تنقطع عن زياراتى حتى وبعد انتهاء أعوام الدراسة، وذهابك إلى الجامعة، كيف حالك؟

قال الفتى إنه أصبح يعمل فى منظمة اليونسكو، وكُرم هو وفريقه كأفضل فرقة استكشافية على مستوى العالم، وحصل على وسام من الرئيس الفرنسى، ذلك حقًّا لهو الفخر بعينه، وقفت منتصبًا، أقول لتلاميذى:

ذلك الشاب من تلاميذى، يتغنى العالم بأكمله من أجله، هيا فلتصفقوا له، ولتكن دفعة لكم أجمعين، كى تصبحوا مثله.

وقف التلاميذ، وأخذوا يصفقون حتى احمرت أياديهم من التصفيق، والشاب يبتسم، وهو ينظر إليهم، ويتوجه نحوى، ثم يحتضننى بحب أبوى، بحب تلميذ لمُعلمه.

هكذا يكون الفخر، قل لهذا الشاب بائع الأنابيب إن تلميذى حقق أحلامه وأصبح مشهورًا بجهده وتعبه ونهمه للتعلم. تبًّا لك!

***



انفض الغبار المتراكم على يدى، وأنا أقف، وأنفض الغبار من على بنطالى الذى اتسخ من جلوسى على الرصيف، وها أنا أسير وأشعر بالفخر، كان ذلك الظل ثقيل الظل حقًّا! ففى حضوره تعم المشاهد القبيحة لى، وفى غيابه تطلع الشمس نهارًا، فها أنا أرى طيب أعمالى، مرسومة على الألواح وعلى زجاج الدكاكين المغلقة، تبًّا، ثم تبًّا لذلك الظل.

هل أراه صحيحًا؟ هل أشاهد أحدهم يقترب منى؟ أمسك منظارى الطبى، وأفرك عدساته بقميصى المهترئ، وأضعها على عينىَّ مجددًا! كيف حدث ذلك الأمر. فحديث ظلى أنه لا يوجد أحد سواى على تلك الأرض المستنسخة!

أحاول أن أتقدم لتتضح لى رؤيته عن كَثَب.

فصُعِقت.

***

إنه أنا مرة أخرى! لقد عاد ظلى مرة أخرى، يتجه نحوى ويبتسم فى سخرية، أصبح على قرابة متر واحد، ثم توقف تحوط جسده هالة بيضاء كأنه أحد الملائكة، ينظر نحوى ثم يقول:

هل اشتقتَ إلىَّ؟

أقول له بعدم اكتراث وأنا أتخطاه وأذهب إلى منزلى:

لا تعنينى بالمرة.

ينظر إلىَّ بعجب ثم يقول بهدوء:

أنا لست هو، أنا جانبك الآخر!

تصلَّبت فى مكانى، وأنا ألتفت إليه بحرص وقلت بتوتر:

مَن أنت إذن؟

قال وهو ينظر نحوى بطيبة:

أرى أنه من حقك أن ترى جانبك الآخر، وقد رأيت أمامك مشهدًا كاد يُبكيك من الفرحة، لا ظلام يمتد إلى النهاية، فبنهايته يتسرب الضوء، ولا تقلق، فالشمس تقترب رويدًا رويدًا حتى تلتهم أرضك؛ لذا فبقائى هنا سوف يكون قليلًا، لكن سيكون من المنصف أن ترانى.

من أنت أيضًا؟

قال وهو يأخذ نفَسًا طويلًا، وينظر لى بابتسامة مريحة صادقة على ما أظن:

جانبك المشرق، جانبك الذى تراه فى الظلام ثقب الضوء يوشك أن يتسع، جانب الأحلام، جانب الطموح، جانب كنت تود رؤيته طيلة حياتك ولم تفلح، لكنك كنت تعيشه بكل رضا ولا تنتظر انتهاءه، لكنه ينتهى فى مدة قصيرة، فقليلًا ما كنت تبتسم،



وكثيرًا ما كنت تغضب! لذا سوف أقول لك، سوف نجلس على ذلك الرصيف؛ أنا وأنت، وننظر إلى ذلك المبنى الطويل، فهو يحمل لك الأمل القليل، والأحلام المستحيلة، والرضا. اجلس بجانبي، وشاهد معي!

***

ونعم الرفاق!

ليتك كنت البداية، ليتك كنت واختفى هو إلى الأبد:

أتتذوق الحلويات قبل أن تأكل؟ فأنا طبق «الحلو» يا عزيزى؛ لذا اجلس وأنصت وانظر.

بلهفة طفل بلغ مرحلة الكهولة من لحظات أقول:

حسن، حسن، أرنى، أرنى!

***

تقف أنت أمام إحدى المذيعات الشهيرات مصادفة لتقول تلك الكلمات الجهورية الجادة التى تستحق الاحترام، عندما تطرح عليك سؤالًا عن انتشار الجهل، وتفشى الفواحش وظهور الإلحاد تقول أنت: «عندما يتفشى الجهل، يصبح كل شيء عشوائيًّا، التعليم عشوائى فلا نستطيع تدريس مادة بعينها لدفعة جديدة من الطلاب، الذين هم أكثر ذكاء من المادة نفسها، لا نحترم عقولهم بالمرة، لقد حدثت ثورة تكنولوجية متطورة، قفزت بعقول الصبية،



حتى أصبحت المادة مثل فيلم كارتون مُمل، تنعدم الرغبة فى التعليم والهروب من المدارس بعدها، ومن ثَمَّ، يصابون بمرض تلوث الأخلاق، تلك المادة التى أقترح على الوزارة تدشين كتيبات لها، وفى جميع الصفوف، ولو انعدمت الأخلاق، ينبذ التعليم بأكمله، ويصبح الحصول عليها فقط للعمل، فالعقل أصبح خاويًا، هو اعتاد على ذلك الفراغ، ومن ثَمَّ يريد شيئًا جديدًا، شيئًا لم يعتده من قبل؛ ألا وهو التحرر، التحرر من كل القيود، الوالدان لديهم واجب آخر هو إحضار المال والأكل والمشرب، فلا يستطيعون معرفة ما يدور فى ذهن أولادهم، تلك الجلسات كانت بالماضى، ذلك الماضى الذى كان يعطى لكل ذى حق حقه، أما هذا الزمن، فقد أصبح الأب يناديه الابن باسمه والأم كذلك، لا فارق بينه وبين ولده، تلاشى الاحترام، وجلسات التأديب، والإنصات، وحل محلها السخرية، والملل، فلا تجرؤ على إعطاء ذلك الصبى نصيحة مفيدة، ومن ثَمَّ ظهرت لنا ظاهرة غريبة؛ الملاحدة! هؤلاء القوم عندما يموتون يرون الحقيقة، ويموتون ويذهبون للقبور مع أمنية كتبت على ورقة ووُضِعت أسفل عنقهم، فلا يعلمون مَن المُذنب، مَن المتسبب فى خلخلة العقيدة داخل النفوس، الآباء أم الأبناء؟ أعتقد «الآباء» فهو عملهم فى الدنيا، هؤلاء الملاحدة أبلغوهم من قبل على وضع ورقة كتبوها بخط أيديهم داخل أحضانهم، ليتنا نعود لنعبد الله مرة أخرى، ولن نعطيه قدرة. عندما



نموت تظهر لنا الحقيقة الواحدة، عندما نموت تموت معنا الأشياء ويحل الظلام قليلا، ليحتضننا الضوء الكامل بعدها، ضوء الحقيقة! الحقيقة وليس شيء غيرها، انتشرت بشكل مفجع تلك الظاهرة، البلد ورثت الجهل من آبائنا، ورثت الغباء، ورثت كل شيء سيئ، ينظرون إلى الطرف الخير هؤلاء الذين تمسكوا بطرق العبادة والتقرب إلى الله . ليتنا نعود لنحترم آباءنا وأمهاتنا، ونُقبل أرجلهم».

***

يختطفونك فى البرامج التلفونية من أجل توعية البشر. من ذلك اللقاء العشوائى، سطع نجمك قليلًا، على القنوات الأرضية، التى يتابعها الفقراء، مع مُرتب لا يتخطى «١٠٠٠جنيه» تظهر لهم لتوعيهم، وتنشر الفكر الذى يُرضى ضميرك.

ولكن لم يستمر طويلًا مع الأسف.

ينظر لى بوجه لا يحمل أدنى تعبير وهو يقول:

ما حدث سوف تقوله أنت، لا أقول سلبياتك.

آخذ نفَسًا طويلًا وأنا أقول بشرود وشَبَحِ ابتسامة طفيف وأنا أتذكر:

جميلة هى دلال! كالكراميل! وعقرب سام، يلدغ ويبتسم، يثور ثم يضحك مُجددًا! اتسعت عيناى



بدهشـة عندمـا علمـت خـبر فوزهـا فى انتخابـات الرئاسـة الجديـدة؛ رئاسـة القنـاة، ومـن ثَـمَّ ذهبـت إليهـا، وأبديـت إعجـابى بهـا، قالـت لى هـا هـا هـا أنـا أيامـى معـدودة هنـا، ليـس مـن المقبـول أن أذهـب إلى مكتبهـا، وأنـا أقـول إنى معجـب بهـا، أنـا لم أرهـا سـوى مـرة واحـدة.

ينظر إلىَّ بصمت، ثم يدعنى أكمل:

ومـن بعدهـا لم تسـنح لى فرصـة أن أنضـم إلى قنـاة أخـرى، فألغيـت وظيفتـى وذهبـت مـرة أخـرى، إلى مدرسـتى المصونـة، لكنـى ولسـبب مجهـول تعلقـت صورتهـا فى ذهنـى؛ قطعـة الكراميـل، دلال.

لم يستطع إخفاء علمه بما حدث، وقال:

تغزلـت بهـا داخـل مكتبهـا، وتريـد البقـاء داخـل المحطـة؟

تلك المرة كنت أقصد حقًّا، فكانت فاتنة تلك الفتاة.

ابتسم ، وقال وهو يلكزنى فى كتفى ذلك:

ذاكرتك لا تنسى تلك الأمور.

أعجبت بها لا أنكر.

رغم زواجك؟

رغم زواجى.

***



يُغير المشهد بيده.

ليظهر آخر، رغم مقتى لها حبيبتى الأولى، إلا أن ذلك المشهد كان وسيظل المحبب لى دائمًا، كنا نسير على أسوار النيل المحبب، أمسكت يدها ثم طبعت قُبلتى الأولى على كفها التى كانت تشبه كفوف الأطفال، كنت شابًّا حينها، وكانت تنظر نحوى بحب جارف، وأبادلها نفس النظرات، هل كنا أطفالًا، لا أعلم، مشاعر الحب يعتبرها البعض نوعًا من أنواع السذاجة الطفولية، ولكننا نمرح مع الطفل بنفس السذاجة أيها الناس، نصبح أطفالًا وقتها، لو وجدنا حبيبًا سوف نصبح بنفس سذاجتنا مع الأطفال، معه! وهنا أخرجت دبلتى، لتحمر أوداجها بحمرة خجل، ينفرط من عينيها دمعة فرحة، لن أنساها، نشوى عجيبة شعرت بها وكأنها البارحة وأنا أشاهد ذلك المشهد الذى مات وطوته السنون، ينتهى ويفرغ مثل كوب العصير الطازج، فجميع أشيائنا الممتعة ننتهى منها فورًا، ولن تستمر طويلًا، يكفينى أننى عِشت تلك اللحظات، وذلك يكفى، غير ذلك المشهد المُحبب، يبدو أنك تملك المزيد.

ينظر نحوى بلُطف ثم يقول:

أملك سؤالًا أعرف إجابته! هل كانت زوجتك؟

أنظر إليه، وعلى وجهى ملامح الوجوم، سؤال صادم، لم أتوقعه، وهذا سؤال آخر لا أستطيع الإجابة عنه بالمرة،



هل كانت زوجتى تستحق الحب ولم أعطها إياه! هل كنت الظالم الوحيد فى حياتها. ها هو يتجاهل النظر إلىَّ وقد أجبته بصمتى، ويغير المشهد بآخر، حيث ليلة الزفاف، كانت سعيدة! «زوجتى»، تمرح وترقص مع الأقارب، وتراقبنى وأنا أرقص مع الأصدقاء، على ملامحها السعادة والفرحة، إنها كانت تذوب فى عشقى حقًّا، وإنها لم تقم بواجبها كزوجة «تأدية واجب»، بل كانت زوجة مخلصة ومُحبة، ليلة الزفاف، كنت مثل المخمور الراقص الذى لا يعلم مَن يجامله، ومَن الحاضرون، فكل ما أفعله هو الرقص، ثم الرقص، ألمح على وجهى «الشاب» السعادة، انفضَّ المولد، وذهب كل شخص إلى منزله يربت على كرشه من فرط الأكل، ويتمنون لى كل التعاسة، فنشوة الشىء فى بدايته: نشوة الفرحة، نشوة الزواج، نشوة إحضار هدية ثمينة، وما إن يزيح الستار عليها، وتنكشف، حتى يصبح كل شىء بلا قيمة، طبعت على كفها قُبلة، لا، لا أريد تذكر تلك الجملة التى تفوه بها فمى، أرجوك غيِّر ذلك المشهد:

لماذا يا أخى؟ أنت فى غاية السعادة فى ذلك التوقيت، لماذا تريد إبعاده؟

لأنى أخطأت، بعدما قَبَّلت يدها دعوتها باسم ليس اسمها!

ينظر لى، ومن ثَمَّ انفجر ضاحكًا، وهو يعلم ويدرك ما



حدث، لأنه نصفى الآخر، ثم قال وهو يحمل ابتسامة حملت سخرية أكرهها كثيرًا فى نفسى:

قلت لها اسم محبوبتك الأولى، ومما لا شك فيه أتعستها ذلك اليوم. تداركت الأمر وقلت لها إنك تمزح فقط، لكنك نسيت أنك أخبرتها عنها وعن اسمها، انهارت الفتاة وأخذت تبكى حتى أدمت عينيها، لم تنجح محاولاتك لإقناعها أنك تمزح فقط. فنام كل شخص بغرفة منفصلة، وعاودت التقرب منها بلطف، وتعايشتْ، وتعايشت معها، وأنت...

ألا يكفى ذلك الأمر؟ هل أنت نصفى المظلم أيها الرجل؟ أيها الـ...

ينظر نحوى بفزع ثم يقول:

كلا بالطبع، أنا نصفك الآخر، النصف المظلم رحل بلا عودة، لكنى أحببت تذكيرك فقط بما حدث!

أنظر نحوه بضيق ثم أقول:

أرنى شيئًا محببًا إلىّ...

كان كل مشهد يستغرق بضع دقائق، لكنك كنت عجولًا، والآن انتهى الأمر برمته، سوف تذهب إلى منزلك وأنا سوف أرحل، فالشمس كادت أن تسطع وتذيب الأرض.



وقفت وأنا أنفض الأتربة مرة أخرى من يدى، ومن على بنطالى وأنا أقول:

حتى وقتك كان قصيرًا أيها الغبى..

قال بغضب على غير عادة جانبى المُشرق:

قلت لك إن وقتى قصير للغاية يا زعيم الذكاء.

وبدون اكتراث، قلت وأنا أهم لدخول البيت:

لقد علمت الحكمة أن السعادة قصيرة جدًّا، أشكرك أيها الوغد.

استمعت إلى جملته الأخيرة، تحدث كأنما يحدث نفسه وأنا معطيه ظهرى وأسير نحو باب المنزل، قال:

عالمك الأصلى، يمكنك كتابة شيء عن تجربتك هنا، ليعلم بها مَن سيملك منزلك ذلك لو أردت، ما سوف يتواجد منك فى عالمك الأصلى، خطك على ورقة فقط، لا أخفى عليك، منزلك سوف يملكه أحدهم قريبًا. أنت قد انتهيت. وسوف تذوب بعد ساعة واحدة أو أقل...

***

أحضرت الكرسى..

النافذة مفتوحة أمامى، حيث أراقب الشمس وهى تغرق، أو تقترب من الأرض، أقترب من الأرض المستنسخة،



أتصبب عرقًا من شدة الحرارة، وأنا أمسك قلمًا وأدوِّن فى ذلك الدفتر ما حدث لى بالتفصيل، أمسح عرقى بيدى اليمنى، وأكمل الكتابة، شعور الألم يعتصر جسدى، صداع أمسكنى كالأخطبوط عندما يقبض على فريسته، لا بشر، لا حياة، فقط هى ساعات قليلة وأذهب من هنا، وأمامى تظهر أفعالى، أستمع إلى صوتى من كل صوب، صراخى فى هذا وتلك، أدون كل ما مررت به على الورقة، ها أنا الآن علمت من الذى أحضرنى إلى هنا! الأرض تذوب من حرارة الشمس، أنا أصبحت بالقرب من الجحيم نفسه. وسوف أرحل قريبًا. أتذكر مصير الظلمة وسافكى الدماء. أتذكر كتيب التاريخ بأكمله، مواقف دس فيها عقلى أنفه، وتخيلتها عن القائد صلاح الدين وهو يحرر القدس، عن الفتوحات الإسلامية بأكملها،عن تاريخ الحبشة،عن تاريخ التتار وغطرستهم، عن تاريخ محمد على باشا والذى أخذ مصر من براثن الجهل وصعد بها إلى الأعلى، إلى النور! ومن ثَمَّ أوحشهم الظلام وهبطوا مرة أخرى إليه، ووصلوا إلى القاع مرة أخرى! تاريخ الأنبياء بأكملهم، عن تاريخ هؤلاء الذين طمس سيرتهم التاريخ ولم يكن لهم ذِكر. أتحدث عنى، عن تاريخى الذى لا يذكره أحد! عن كل شىء درسته وعايشته وتألمت من أجله! لماذا كل هذه الضجة الحياتية؟ لماذا نصارع أنفسنا ونحاول قتلها بشتى الطرق؟ لماذا تفننا فى تعذيب النفس؟ لماذا أرهقنا رئتينا بالسجائر والنيكوتين



والشيشة؟ لماذا نخون؟ لماذا نقتل؟ لماذا نغتصب حقوق الغير؟ لماذا نفعل كل الأشياء التى نهانا عنها الله بنفس راضية وقبول وقح؟ لماذا نسينا سر تواجدنا على الأرض؟ لم أنسَ. ولذلك كرَّست حياتى فى تعليم الأطفال. أعلمهم من أجل أن لا ينسوا سِر وجودهم! ومن أجل هذا أُصِبت بمرض النسيان، والوصول إلى الشيخوخة الكئيبة! ولكننى لم أنسَ. أنا لم أفعل كل تلك الأشياء اللعينة. لم أمارس السحر مطلقًا حتى لو ملأت أمعائى بكحول الأرض، وأذابوا عقلى! لم أنسَ! لذا سوف أقولها لك. هل أفادك ذلك الدرس. لقد دوَّنت ما حدث لى هنا.. سوف أتركه لك عبر دفترى الصغير ها هنا يا مالك القصر.. حقًّا شىء مُوجِع أن يُباع ما تملك دون إرادتك، فأنا هنا سوف أذوب معه، وأتركه لك.. كل شىء سيزول وينتهى، كل شىء، ها أنا أتذكر قصة ذلك الكلب الأسود الذى يطل علىَّ الآن عبر النافذة، ويأتى إلىَّ، إنه مجرد ظل!





أخبرتنى أمى ذات يوم أن الكلب الأسود ما هو إلا جنى مُتخفٍّ، احترس من الكلب؛ فلُعابه نجس، إنها كانت تكره الكلاب بكل أنواعها، وكنت أنا أتقرب إليهم كلما رفضتهم أمى بعناد الأطفال، فذات يوم كئيب هبطت الدرج كى ألعب مع أصدقائى؛ رفاق الحارة، نركض ونلعب بالكرة، ومن ثَمَّ نبحث عن متعة جديدة، توجهوا نحوى قائلين كأنى زعيمهم: اختر أنت لعبة جديدة, اخترت أنا الإمساك بالكلب الأسود. أحاطوا المسكين، الذى كان ينظر إليهم باستعطاف، ربطه أحدهم من عنقه، ومن ثَمَّ أمسكه طرف الحبل، وقام بإلصاق الكلب بالعمود، فأمسكت الحبل، وقمت بإحاطة العقدة حول عنق الكلب، ومن ثَمَّ يزداد الضغط على رقبته أكثر وأكثر، الجميع أخذ يصفق بيديه تشجيعًا، أنا لا أهاب الكلاب، أنا أكرهها مثل أمى تمامًا، الكلب يئن ونحن نصفق، لقد مارسنا التعذيب على الحشرات من قبل، والقوارض، وعلى القطط، أمسكنا رأسها ذات مرة، وغمسناه داخل حوض المياه، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، كان الكلب تجربة لم نقم بها من قبل، النباح يختفى رويدًا رويدًا، يحاول التملص ولم يفلح ذلك الجن الأسود، أمسك صديقى الحبل، وأخذ يشد ويشد، ما الجديد؟ أمسكت العصا لأخلص ذلك الكلب من عذابه، وعلى رأسه: ثلاث طرقات وبشدة، حتى انتهى من المقاومة، وأصبح مستكينًا، هيا لنبحث لنا عن لعبة جديدة، لم



أنسَ نظرات الكلب وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، نظرة مَن يطلب النجاة، كنت فى سن الثمانى، كنت أدرك أن جميع المخلوقات الصغيرة مجرد لعبة، فورًا صعدت لأمى لأخبرها بما فعلت، لطمتنى على وجهى، ومن ثَمَّ قالت صارخة: «قتلت روحًا!»، وبعدها أخذ يطاردنى فى أحلامى، فى حيوان أقابله يشبهه، لم أتخلص من عقدة الكلب بعد، لكنى وبعد البلوغ عرفت ذنبى، لم أكن مدركًا بعد، كنت صغيرًا كفاية لأدرك حجم تلك المأساة، قتلت روحًا! وها هو الآن يقفز ويقترب نحوى، ويجلس بجوارى، كأنه صديق، أو كأنه يقول أنا سامحتك.

لنصبح أصدقاء.

ولنمُت معًا.

***


ساحر الكتب



في الأرض الأصلية.

في منزل الأستاذ «بدر»؛ مدرس التاريخ، كان يقبع المشترِى الجديد لذلك المنزل داخل المكتب! وأغلق دفترًا صغيرًا، قرأ النص بأكمله، أطبق حاجبيه بشدة، في عجب ودهشة واستنكار، حين أتت زوجته تحمل فناجين الشاى، ووضعتها أمامه قائلة:

ما بك؟

أغلق الدفتر الصغير، وقال لها في استنكار:

منذ أن باعوا لنا هذا المنزل، قرأت من تلك المكتبة معظم الكتب، كتب تاريخ بكل أنواعه وأصنافه بمختلف الحضارات، تخيلى! مالك هذا المنزل، الذى كان مالكه يمتلك كتبًا عجيبة لم أرها أو أسمع عنها طوال حياتى عن تاريخ ما قبل الإنسان، وجميعها مُدوَّن عليها ملاحظات عجيبة بقلمه هو: «بدر».

ذلك جيد جدًّا، لقد خيَّرك بائع المنزل إذا كنت تريد الخلاص من العفش والأثاث والكتب، لا أعلم إصرارك في أن تحتفظ بكل شىء في ذلك المنزل.

ذلك المنزل ينبض بالتاريخ عزيزتى، كل شىء تُراثى وثمين، انظرى إلى الدرج وإلى الأسوار المصنوعة



مـن النحـاس، إلى النجـف، إلى التماثيـل، لقـد وجـدت ثمـن المنـزل زهيـدًا، لكنـكِ كـما تعلمـين أحـب الأشياء الكلاسـيكية وإلى التماثيـل الفضيـة، كل هـذا جيـد ومقبـول. ذلـك الدفـتر.

أمسكه بيده وكأنه يتمسك بدليلٍ ما لا تعلمه هى:

لقـد روى صاحـب تلـك المذكـرة أنـه أصبـح فى أرض أخـرى، تشـبه الأرض، أو نسـخة مـن الأرض كـما يقـول، قابـل هنالـك شـبيهه، أو ظِلـه، لا أعلـم! المهـم يـا عزيـزتى أن ذلـك الظـل أراه كل عيوبـه وأخطـاءه عـلى مـدار حياتـه، شاشـات تظهـر فى كل مـكان ترصـد المدعـو «بـدر» وهـو يقـوم بسـب هـذا ويتسـبب فى قتـل أسرتـه بالكامـل!

أسرعت بتوتر قائلة:

أوووه لا، لا تقل إنهم قُتلوا فى ذلك المنزل!

ههههههههـه كل هـذا هـراء عزيـزتى بالتأكيـد. لقـد أقسـم البائـع إن أهـل ذلـك المنـزل رحلـوا وغـادروا إلى بلـدة أخـرى، لا تقلقـى!

أسرعت تأخذ كوبها وتُقربه من شفتيها وقالت:

لقـد قـال لى أيضـا ذلـك الـكلام، ولكنـى ومنـذ قدومى إلى هنـا، أسـتمع إلى ضجـة فى الطابـق الثالـث. ضجـة



خفيفـة، صعـدت بالأعـلى ووجـدت كل شىء هادئًـا، حتـى النوافـذ مُغلقـة ولا يـأتى منهـا أى صـوت.

وضع الكتيب الصغير أمامه قائلًا:

لـو صدقـت تلـك المذكـرات، فكيـف أتـت مـن الأرض الأخرى؟

ضحكت زوجته قائلة:

أرض أخـرى! ههههههـه، لا تصـدق كل مـا تقـرؤه يـا حبيبـى.

ثم انتشلت المذكرة، وشربت من الكوب قليلًا قائلة:

سوف أقرؤه!

قام وانتصب زوجها وقال:

هــو لـكِ، ســوف أذهــب لأريــح جســدى قليــلًا، فأمامــى ســفر طويــل بعــد الغــد!

***

هــدوء ثــم هــدوء.. شــعرت هــى بالخــوف! فــور انتهائهــا مـن قـراءة المذكـرات! قامـت وبحثـت فى المكتبـة عـن كتيـب السـحر المذكـور داخـل المذكـرات، وقـد وجدتـه مدسوسًـا وسـط الكتـب، بشـكل بـارز، يبـدو أنـه أكبـر الكتـب هـا هنـا! انتابـت جسـدها القشـعريرة عندمـا فتحـت الكتـاب، ووجـدت بالفعـل صـورًا ورمـوزًا ونقوشًـا غريبـة الأطـوار، حينهـا سـمعت أصواتًـا بالأعـلى، فى الطابـق الثالـث، أغلقـت الكتـاب، وصعـدت الـدرج



التـى أعطتهـا دهانًـا مميـزًا باللـون الـوردى، فقـد كان البائـع ملهوفًـا لبيـع ذلـك المنزل، كان يقـول إنـه ينـوى السـفر خـارج البـلاد، وقامـوا عـلى عَجَلـة بـشراء ذلـك المنـزل القديـم، الـذى يشـبه مـن الخـارج قصـور العصـور الوسـطى، زوجهـا يمتلـك بالفعـل المزيـد مـن المنـازل والقصـور الفخمـة والتراثية، يشـتريها كـما هـى، بالأثـاث والأنتيـكات القديمـة، هـذا دربـه، زوجهـا مليونـير سـخى، وبائـع للتحـف، يكـون فى أول صفـوف المـزادات، ويقـوم ببيـع التحـف المتواجـدة بالفعـل داخـل المنـازل، وهـى لم تعـترض، تُحبـه، وذلـك يكفـى، وتعلـم، بـل وتُـدرك ذلـك الأمـر حتـمًا، بالفعـل رمَّـم القـصر القديـم مـن الخـارج وتـرك الداخـل كـما هـو، حينـما عـثر عـلى الأثـاث القديـم الكلاسـيكى، والتماثيل النحاسـية والفضيـة، يبيـع التحـف الأثريـة المتواجـدة داخلـه فى المـزاد، ووقتهـا وبعـد التخلـص مـن كل شىء يقبـع داخـل أمعـاء القـصر، فيسـتطيع ترميـم المنـزل مـن الداخـل، ويقـوم ببيعـه مـرة أخـرى، وبسـعر مُضاعَـف، زوجهـا ذكى، ولا يقبـل الخسـارة مطلقًـا، وحينهـا يبحـث عـن منـزل آخـر، وهكـذا.

لقد بعثرت تلك المذكرات ذكرياتها بأكملها.

بالفعـل تعتـبر تلـك القصـة مرعبـة، لـو حـدث ذلـك الأمـر، ورأت نفسـها ورأت ظلهـا، يشـير إليهـا بأفعالهـا الحمقـاء طـوال حياتهـا! وبالفعـل رددت نفـس السـؤال رغـم غرابتـه، كيـف وصلـت تلـك المذكـرات إلى هنـا، إذا كان كاتبهـا فى أرض



أخرى؟ أو فى نسخة أخرى؟ تذكرت مشهد إمساكه بهاتف حبيبته الأولى! ومشهد آخر وأفعاله تتجسد أمامه، أفعاله الحمقاء، ومشهد احتراق الطابق الثالث! تلاشى ذلك الأمر وهى تصعد على الدرج بكل توتر.. هنالك أشياء تتحرك بالفعل، ولا تراها! الهدوء القابع فى الدور الثالث مُرعِب رغم هدوئه، لا شىء يدعو لحدوث جلبة، لكنها تحدث!

***





حبيبتى أفيقى.

فتحت عينيها، فوجدت رأسها ملفوفًا حوله شاش أبيض طبى، ويمسك بيدها اليمنى طبيب، ويقيس لها الضغط، وبعدها أسرع ليعطيها محقنًا، أسرع زوجها يقول بلهفة:

حبيبتى، أنتِ بخير، حمدًا لله على سلامتك!

قالت بألم:

ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

أسرع الطبيب يقول مبتسمًا:

وذلك ما نريد أن نعلمه منك، ماذا جرى لكِ؟

أسرعت تتلمس رأسها المصاب، ثم قالت:

لا أذكر! لقد صعدت للطابق الثالث، وسمعت أصواتًا، ومن ثَمَّ وجدت نفسى أمامك.

قال الطبيب:

تعرضتِ لضربة على الرأس، ربما سقطتِ أرضًا بعدها، أو ربما ارتطمتِ بشىء.

لا أذكر شيئًا.

قال الزوج للطبيب وهو يربت على يد زوجته:

لا بأس، المهم أنكِ عُدتِ إلى وعيكِ، وذلك هو الأهم.

طبع قُبلة على يدها. وقال الطبيب فى هدوء:



أنتم المُلَّاك الجدد لذلك القصر؟

قال الزوج:

نعم، اشتريناه مؤخرًا، منذ تقريبًا أسبوع.

قال الطبيب وهو يغلق حقيبته:

سوف أكون لك ناصحًا، ذلك المنزل يدور حوله الأقاويل، بالطبع لا نؤمن بالخرافات التى تقول إنه مسكون.

هُراء أيها الطبيب، أخبرنى مالكه أنه وأهله سافروا إلى الخارج، وعرضوه للبيع، ذلك كل الأمر!

قال الطبيب وهو يقف قائلًا:

لندع المدام ترتاح قليلًا، ولنخرج من الغرفة لنتحدث خارجها.

هبَّ الزوج يُطمئن زوجته أنه سوف يعود إليها بعد أن يغادر الطبيب، وأغلق باب غرفتها خلفه، فواجه الطبيب الذى قال باهتمام:

بحثوا على مدار السنين السبع الفائتة عن مشترى لذلك المنزل ولم يجدوا، ذلك المنزل ملعون، وكنت أخشى إخبارك أمام زوجتك، ذلك المنزل مسكون، وأنصحك بالخلاص منه فورًا.

خشى الرجل أن يضحك تلك المرة، فالأمر الواضح أن زوجته تعرضت لضربة من شىء مجهول، ولم تقع من تلقاء



نفسـها، يمكـن أن يكـون روحًـا شريـرة. تذكـر بالفعـل تلـك المذكـرات عـن المدعـو «بـدر» وأسرتـه! سـوف يعلـن عـن مـزاد قريـب لبيـع أثـاث ذلـك المنـزل وينتهـى كل شىء. أسرع يقـول للطبيـب:

لا تقلق، فسوف نرحل قريبًا.

مد الطبيب يدة لتحيته، وشعور بالراحة ينتابه:

سيكون أمرًا جيدًا لكم، ولينتقم الله من البائع.

أغلـق البـاب خلفـه، وذهـب إلى زوجتـه، اسـتمع جيـدًا إلى ذلـك الصـوت الآتى مـن الحـمَّام، أسرع نحـوه، ليجـد الصنبـور منفجـرًا بالمـاء، حتـى غطَّتـه الميـاه وهـو يحـاول تكميـم فـم الصنبـور، ومـن ثَـمَّ أغلقـه مـن المفتـاح الرئيـسى، فتـح البـاب عـلى زوجتـه، وجدهـا تتأمـل هاتفهـا المحمـول، لتخـبر النـاس عـلى صفحتهـا الإلكترونيـة أنهـا تعرضـت لحـادث بسـيط، قـال لهـا:

حبيبتـى سـوف أذهـب إلى السـباك، صنبـور الحـمَّام قـد انفجـر، لـن أتأخـر!

انتابها الرعب وقالت:

لاااا، لا تتركنى وحدى.

عزيـزتى لـن أتأخـر، إنـه عنـد أول الشـارع سـوف أذهـب إليـه وأعـود بسرعـة، لا تقلقـى.

نظرت إليه برعب، وهى تتحس رأسها، وقالت:



لا أدرى مَن فعل بى هذا الأمر، لكنى أدرك أنه مرعب، إذن لا تتركنى، ولنرحل من هنا فورًا.

بعد إصلاح الصنبور، لا تقلقى.

***



أخذ الزوج يضرب كفًّا فوق كف.. متعجبًا ومندهشًا من الوضع الحالى، فبعد مرور أسبوع كامل من حادثة الزوجة، وفشله فى إحضار أى أثاث قديم أو تحف، فكلما أخذ قطعة من التحف، كانت تقع قطعة أخرى من مكان بعيد، وذلك أكد شكه بوجود أشباح أو جن داخل ذلك القصر، وذلك الدفتر فضح قصة أصحاب ذلك القصر! حاول بيع القصر بأكمله، حيث تتردد شائعة خبيثة بوجود لعنة تحتل أركان ذلك القصر، فيفشل فى بيعه، لقد دفع لأصحاب ذلك القصر مبلغًا كبيراً؛ «٢» مليون جنيه، كان يود بيعه بضعف ذلك المبلغ، بعد بيع التحف التى كانت بداخله، أما الآن، فشعور الفشل يملأوه ويكاد يصب غضبه على زوجته القابعة فى منزله بمدينة نصر، قال لها فى ثورة:

لم أجد بائعًا واحدًا يقوم بشراء ذلك القصر، وكلما وجدت أحدًا وذهبت به إلى هنالك، نجد الأشياء تتحرك من تلقاء نفسها، فيهرب الرجال، أحدهم حسب ما سمعت أخذ إجازة أسبوعًا يُعالَج فى أحد المنتجعات، فلقد أصيب بالذعر والخوف.

قالت زوجته بتوتر:

اعثُر على البائع، ذلك البائع الذى قمت بشراء المنزل منه، يبدو أنك كنت زبونًا لقطة، فلقد أسرع



ببيعـه لـك عندمـا رأى فى عينيـك الإعجـاب، لقـد وجـد ضالتـه فيـك يـا عزيـزى، وذلـك الدفـتر أكاد أصـدق كل حـرف ذُكِـر فيـه، وقصـة المدعـو «بـدر» يبـدو أنـه تحـول لشـبح مـا، هـو وبناتـه وزوجتـه، الذيـن ماتـوا محترقـين أو مخنوقـين، لم يذكـر هـذا فى الدفـتر الصغـير.

وقف الزوج يقول باهتمام وكأنه يُحدث نفسه:

قـال لى أهـل الشـارع بأكملـه إن أصحـاب المنـزل قـد غـادروا، وتلـك الحكايـة المذكـورة داخـل الدفـتر مجـرد هُـراء!

قالت الزوجة بنفس التوتر:

عزيـزى، نسـيت أن أخـبرك، يـا ويـلى! لقـد تذكـرت بعدمـا أفقـت مـن الغيبوبـة والخبطـة التـى كانـت عـلى رأسى، لقـد اسـتمعت إلى صـوت طفلتـين تعبثـان فى الطابـق الثالـث، ربمـا قـد أرعبنـى الأمـر، وجعـل الخـوف يتسـلل نحـوى، ربمـا سـقطت مـن أثـر الخـوف، لكنـى أجـزم بقيـام أحدهـم بـضربى عـلى رأسى.

اللعنة! ماذا نفعل إذن؟!

حمـل هاتفـه المحمـول وطلـب رقـم بائـع ذلـك القـصر، لكنـه لا يسـتجيب كعادتـه، لا بـد أن يجيـب! لأنـه الخـلاص الوحيـد مـن ذلـك القـصر الملعـون! قالـت زوجتـه:



حَدِّثه من رقم غريب آخر، فإنه لن يرد عليك، لأنه يعلم فى تلك المرة أنك ستشكو له من القصر.

٢ مليون جنيه يمكنه السفر بهما خارج البلاد، وأن يعيش ملكًا!

قالت زوجته باهتمام:

عزيزى، صِف لى هيئته من فضلك.

نظر لها طويلًا وقال:

لماذا؟

هل كانت تبدو عليه معالم الفقر الشديد، أم حالة متوسطة، أم...

هيئته المذكورة داخل الدفتر أنه «بدر»، وفور تعاملى معه، مقارنة بالمذكور داخل الدفتر فإنه «بدر». اسمه «جبالى السيد» يعمل فى... لقد نسيت!

أحضر أوراق العقود، عقود ذلك القصر فورًا.

ذهب الزوج إلى مكتبه الوثير، وفتح درج مكتبه، ليُخرج رزمة من الأوراق، بحث من خلالها عن أوراق بيع القصر، انتقى منها الأوراق، وقال وهو يشير إليها بها:

ها هى!

أسرعت الزوجة تتمسك بالأوراق، وتُدوِّن على ورقة جانبية بيانات الرجل، الاسم «جمال السيد حسين»، يبلغ



من العمر واحدًا وستين عامًا، مُصحح لُغوى داخل صحيفة مغمورة مصرية «...»، المنزل هو ذلك القصر.

أسرعت تقول باهتمام:

يبدو أنه بالفعل لا يمتلك سوى ذلك القصر.

بحث عبر هاتفه عن تلك الجريدة، ووجد أخيرًا أرقامها، رفع سماعة الهاتف الذى كان موضوعًا على مكتبه فى سرعة، وطلب رقم الجريدة فأتى صوت متزن يقول:

أهلا بك فى جريدة «...»، أى خدمة؟

مرحبًا بك يا سيدى، أود السؤال عن رجل يعمل فى جريدتكم يُدعى «جمال السيد حسين»، هو مُدقق لُغوى، أو مُصحح لا أعلم، بالمناسبة معك رجل الأعمال «فايز المنوفى».

مرحبًا بك، ماذا تريد تحديدًا؟

أريد التحدث معه فى أمر بالغ الأهمية.

لحظة وسوف أعود إليك.

يسمع صوت موسيقى كلاسيكية. قالت الزوجة بصوت خفيض:

هل هو هناك؟

مطَّ شفته السفلى، دلالة على جهله بذلك، وفورًا أتاه صوت عبر الهاتف يقول:

معذرة يا سيدى، لقد ترك العمل منذ شهر تقريبًا.



خبط على المكتب بكل غضب، وكتم غضبه أمام الرجل الذى استمع إلى صوت خبطة لا يدرى سببها:

ألا تدرى مكانه، منزله؟ هل ذهب إلى جريدة أخرى؟

لا نعلم عنه شيئًا يا سيدى! لقد ترك الجريدة، نملك فقط عنوان منزله وهو «...»!

أغلق الزوج الهاتف وصمت، قالت الزوجة:

لا يدرون عنه شيئًا؟

فتح زوجها فمه وقال فى شرود:

أعطونى عنوانه؛ وهو عنوان القصر!

***

ذهب إلى ذلك الشارع الطويل الممتد. ذهب الرجل وحيدًا علَّه يعثر على أى شخص يعلم أين يسكن ذلك المدعو «بدر»، أو «جبالى السيد». سأل الجميع، حتى لو كانت القطة تستطيع النطق لقالت لا أدرى مكانه، اقترب من المتجر، متجر صغير للتحف، لفتت انتباهه القِطع الأثرية القديمة، شغفه عاد من جديد، لكنه لم يُنسِه البحث عن الرجل. وقف صاحبه يُنظف بريشة خفيفة التماثيل الموضوعة، وقال له:

عفوًا، أريد أن أسألك عن شخص يدعى «جبالى السيد»، هل تعلم أين انتقل؟



ابتسم صاحب المحل، وفى لفتة طيبة ضايف الرجلَ وأحضر له كرسيًّا وكوب شاى، وقال له:

لا أحد لا يعلم مَن هو جبالى السيد، ذلك رجل طيب السيرة، دمث الخلق، كان صديقى فى الماضى، قبل أن يغوص فى هموم الحياة، وأصبحنا لا نتلاقى على القهوة سوى دقائق معدودة، بالطبع أعرفه، لكن قل لى أولًا...

ثم نظر عن اليمين واليسار ليتأكد بأن لا أحد يستمع إليهما:

ماذا تريد منه؟

تغيرت ملامح الرجل بجدية وهو يقول:

أريد استعادة مالى منه بالطبع.

هل سرقكَ؟

باع لى قصرًا مسكونًا!

انفجر صاحب المتجر ضاحكًا وهو يقول:

ههههه، عزيزى أتصدق تلك الخرافات؟ لا يوجد مِثل هذا الكلام هنا!

انفجر الرجل غاضبًا أكثر وأكثر من أثر كلمات الرجل الساخرة:

قلت لك إن المنزل مسكون! شاهدت بأم عينى الأشياء تتحرك من مكانها.



تغيرت ملامح التاجر لملامح الاهتمام الشديد وهو يقول:

أصدقك أصدقك يا ولدى! حسن، سوف أعطيك عنوان السيد بد... جبالى السيد.

ماذا قلت؟

لم أقل شيئًا! ماذا سمعت؟

أحنى الرجل حاجبيه فى دهشة، معتقدًا أنا الأمر أثَّر فى مُخيلته وفى سمعه وبصره، ثم أخرج من جيب البنطال الخلفى دفترًا صغيرًا وأعطاه للتاجر قائلًا:

ذلك الدفتر، يحكى عن شخص يقول إنه مالك ذلك القصر الحقيقى، أعلم أن القصة تبدو خيالية، لكنه يقول إنه انتقل إلى أرض أخرى نُسخة من الأرض و...

قاطعته ملامح الرجل المندهشة غارقة فى التعجب الشديد، واتضح له أنه لا يفهم شيئًا مما يقول، تدارك الرجل الأمر وهو يقول:

حسن، أعطنى عنوانه.

***

وصل هو وزوجته تلك الشقة الوثيرة الكائنة بمدينة نصر، ما إن رآهم «جبالى السيد» حتى قام بتحيتهم وضايفهم، هو وزوجته أيضًا، تنحنح الرجل ثم قال:

أستاذ جبالى، أريد أن أعيد لك قصرك المصون.

انحنى حاجبا «جبالى» فى دهشة وقال:

لماذا؟

هنا قالت زوجة الرجل:

وقعت أحداث بشعة لا أريد أن أذكرها بالمرة، ونحن مُصرين على إعادة القصر لك.

وهنا قالت زوجه «جبالى»:

لماذا لم تعرضاه للبيع مثلًا.

قال الرجل بجدية:

حاولنا بيعه بشتى الطرق، وكلما دخل أحدهم إلى القصر تقع أحداث، فتتحرك أشياء من هنا وهناك! وتسقط أشياء من الأعلى، خصوصًا أن الطابق الثالث يتضح أنه ملجأ للأشباح.

قال جبالى بجدية:

لم تظهر تلك الأشياء عندما كنا بداخله، تبدو مُزحة!

تلك ليست مُزحة، والأمر جدى، أريد أن أعيد لك القصر وآخذ نقودى؛ هذا كل شىء.

وهنا، انفجر «جبالى» ضاحكًا، وقال باستنكار:

بتلك السهولة!

بتلك السهولة.



قالت زوجة الرجل:

زوجـى أراد شراء ذلـك القـصر بـكل مـا فيـه، وكان هـذا شرطٌ قبـل البيـع، وقـال لـك مـاذا تريـد فقلـت ٢ مليـون جنيـه، فأعطينـاك إياهـا ومـن دون مناقشـة، نحـن الآن نريـد إرجـاع القـصر، وبالمناسـبة قُمنـا بترميـم الأشـياء المنهكـة فى كل شـبر منـه، ولا نريـد ثمنًـا لذلـك الأمـر، فقـط كل مـا نريـده المبلـغ الـذى دفعنـاه، وهـذا كل شىء!

قال جبالى موجهًا حديثه للرجل:

موضـوع أن أرد لـك المـال مرفـوض تمامًـا؛ وذلـك كـما تـرى، فلقـد اشـترينا هـذا المنـزل، بـكل مسـتلزماته وأثاثـه، وعرضنـا عليـك أن نأخـذ أثاثنـا وأشـياءنا فرفضت، فاشـترينا المنـزل وهـذا الأثـاث الحديـث، ولا نملـك حقًّـا مـن كامـل المبلـغ سـوى ٧٠٠ ألـف جنيـه.

***

استنكار، رفـض الأمـر، عصبيـة مـن كلا الرجلـين، مناقشـة بـين الزوجتـين، وصلـت إلى درجـة الحـدة، هنـا قـال «جبـالى»:

الأمر متروك لك، ولك أن تقبل أو ترفض، أنت حُر.

أعطيـك مبلـغ ٢ مليـون جنيـه لـشراء القـصر، وعندمـا أرده لـك تريـد شراء قـصرك مـرة أخـرى بمبلـغ ٧٠٠ ألـف جنيـه، أيـن عقلـك يـا هـذا؟



مـا بيننـا عقـد بالـتراضى، وأنـت الآن بائـع وأنـا المشـترى، وأنـا لا أريـد شراء القـصر مـرة أخـرى، يمكننـى الرفـض وينتهـى الأمـر، تعـرض عـلىَّ قـصرًا بمبلـغ ٧٠٠ ألـف جنيـه، والأمـر يتوقـف عـلى قبـولى أو رفـضى، حسـن، أنـا أرفـض شراء القـصر بذلـك المبلغ ولـك منـى عـرض؛ فلـك أن تقبلـه أو أن ترفضـه؛ فذلـك شـأنك! سـوف أشـتريه بمبلـغ ٥٠٠ ألـف جنيـه.

وقـع الخـبر عـلى مسـامع الرجـل المحـب للتحـف، كصاعقـة هبطـت مـن السـماء عـلى رأسـه، فنظـر إليـه طويـلا، وأشـار إلى زوجتـه أن تصمـت، فأغلـق عينيـه، وتمنـى أن يصبـح كل هـذا مجـرد حلـم.. فتـح عينيـه وقـال كأنمـا يُحـدث نفسـه:

أنـت الرابـح الأكـبر إذن هنـا، فُـزت بمبلـغ المليـون والنصـف، وقـصرك عـاد إليـك عـلى الرحـب والسـعة.

قال الجبالى بغضب:

ذلـك القـصر لم أُرِد شراءه بالمـرة، أنـت تريـد بيعـه لى، وقدمـت لـك عرضًـا لـك، فلـك أن تقبـل أو أن ترفـض.

ضرب الرجـل مقدمـة الكـرسى الـذى يجلـس عليـه، وهـو يقـول شـيئًا، وكأنـه يسـبه بمـا يوقـن بـه، وتذكـر أنـه فى منـزل الرجـل، وكانـت زوجتـه تبتسـم فى سـخرية، وهـى تـدرك حجـم خسـارة زوجهـا فى تلـك الصفقـة، وتلـك هـى الصفقـة



الفاشلة فى حياة زوجها، تُدرك وتُوقِن أنه سوف يبيع القصر عاجلًا أم آجِلًا، وتقول فى ذات نفسها، لا أحد يفوز للنهاية، وسوف يأتى يوم يذوق فيه طعم الخسارة. لا تدرى لماذا شعرت بالفرح، رغم أنها تعشق زوجها، فسعدت بداخلها قليلا لخسارة زوجها، وتوقف مسلسل نجاحه المستمر فى جَنْى ثروات من شراء بيع القصور، سمة الحياة وطبعها، لكنها لم تقل له بالطبع، ومَن يمتلك قصرًا تسكنه الأشباح والعفاريت!

***

قبل تلك الأحداث بمدة طويلة، داخل قصر «الجبالى»، حيث كان مجتمعًا مع تاجر التحف، الذى يتواجد داخل شارعه الطويل، كان الجبالى منتشيًا، شارد الذهن، والآخر يرتشف من كوب الشاى، ويبدو أنهما يفكران فى حل ذلك الأمر بالغ الخطورة، قال التاجر:

أملك لك حلًّا، لكنك يجب أن تقبل.

رفع الجبالى رأسه وكأنه تفاجأ بوجوده، ثم قال بنبرة حزينة مستسلمة:

قُل ما عندك!

وضع كوب الشاى على المنضدة، وقال بهدوء:

أنت لا تريد الاستغناء عن قصرك هذا، أليس

كذلك؟ وبالطبع لا تملك مالًا لكى تنفق على أبنائك الصغار، ولقد قاموا بطردك مؤخرًا من العمل، وأحالوك إلى المعاش، والمعاش لا يقدر على سد أفواه الأسرة بأكملها، حسن، الأمر يتطلب الجدية.

أنت تعلم كل هذا مسبقًا! ما هو الحل؟

توقف قليلا عن الحديث، ونظر إليه نظرة كأنما يستشف روحه، ويستنبط ردة فعله القادمة:

سنبيع ذلك القصر؟

كلا وألف كلا، لن أبيعه حتى لو أطعمت الصغار التراب، لن أبيعه، انسَ ذلك الأمر من مُخيلتك!

رأيت مؤخرًا شخصًا ثريًّا فى أحد المزادات العلنية...

قلت لك لن أبيع قصرى، أفهمت؟

أكمل وكأنه لم يستمع إليه:

ذلك الشخص راقبته عن كَثَب، ردود أفعاله عندما يرى قطعة أثرية قديمة والتحف، ينسحر بها، يذوب فى عِشقها، ومن ثَمَّ يقوم ببيعها فى الخارج بأثمان مرتفعة، بضعف ثمنها بمراحل، ومنزلك يحوى الكثير منها، بل هو غارق داخلها!

قلت لك لن أبيع منزلى، يعنى بالتالى، لن أبيع قطعة أثاث واحدة، ولو بالملايين!

لن تبيع منها شيئًا.

لا أفهم شيئًا بالمرة.

اسكت واستمع ولا تقاطعنى من فضلك يا أستاذ جبالى!

***

أعدَّ تاجر التحف خطة محكمة الصنع.. من خلالها أحضر تحفًا رخيصة الثمن ورَبطها بخيوط من الأسفل، مع بعض الكراسى رخيصة الثمن, ورَبطها بخيوط وهمية، وجَمعَ منها الكثير ونشرها ونَسَّقها فى كل زاوية داخل القصر، قال جبالى متسائلًا:

لماذا أحضرت تحفًا رخيصة، ووضعتها بين التحف القيمة ؟

أجاب ببساطة:

عندما تتحرك التحف وتقع أرضًا لن يلاحظ المالك الجديد ولن يستطيع تمييز الأمر، فسوف يصعقه تحرك الأشياء، سوف نحركها من موضعها دون أن يمسسها بشر وسنُرسخ فى ذهنه أن الأرواح الشريرة هى مَن فعلت ذلك، ولن يستطيع حينها ذهنه التفريق ما بين الغالى والثمين، سوف يقول بكل فزع مَن حركها من موضعها؟ ولن يستطيع التفريق



بينها وبين الأخرى، اللافت للانتباه حينها أن أثاث المنزل أيضًا يتحرك فقط، سنكسر الرخيص ونحطمه بأحبال خفية لن يستطيع أحد رؤيتها، وسنحتفظ بالقَيِّم، ولن نضع أحبالًا خفية أسفلها بالطبع.

أأنت واثق من الخطة؟

تمام الثقة.

لذا سنُجربها على أحدهم قبل خوض ذلك الغمار.

دخل السبَّاك بكل اهتمام يتساءل عن مكان الصنبور المكسور، وحينها قام التاجر من الخارج بتحريك قطعة من الأثاث أمامه، ففزع الرجل وهرب من البيت فورًا ودون مناقشة.

وقف جبالى فى انتظار التاجر الذى دخل بكل ثقة يقول:

ألم أقل لك ثق بي؟ ذلك هو الباب الوحيد لانتشالك من قاع الفقر يا صديقى. أنت فى حاجة للأموال، سنعرض ذلك المنزل فى المزاد العلنى، وسنضيف أيضًا أنه يحوى آثارًا قديمة للملوك وتُحفًا ثمينة، ونريد بيعه كما هو. وأنا أعلم مَن سيكون الأول على قائمة المشترين.

ماذا ستفعل مع الناس من حولنا؟ هل سيخبرونه أن ذلك المنزل سليم و...



لا تقلق، سأخبر الجميع. القصر أمامى، وسأراقبه عن كَثَب، وسأخبر الجميع بذلك الخبر، وبالطبع ستعطينى مبلغًا كى ألصق أفواههم بعد بيع القصر، ولكى يقولوا ما سأخبرهم أنا به.

ما أدراك أنه وبعد وقوع الأثاث سيفزعون، وسيهرعون فورًا؟ وكيف تثق أنه لن يبعيه لشخص غريب. وربما سيُخفى أنه مسكون.

قال التاجر بكل استنكار:

ألم أقل لك إنى أراقب القصر، وأعلم مَن يدخل ومَن يخرج. فكل شخص غريب يدخل، سنقوم بتحريك الأثاث والتحف الرخيصة، وذلك كفيل بدب الرعب بداخله إلى الأبد. وسنقوم بتثبيت التحف الثمينة؛ وسيكون ذلك لو أحب أن يبيع إحداها، لا تقلق، سيعود إليك ولن يمس منه شعرة، أمسك ذلك الدفتر، وضعه داخل مكتبك.

أمسكه وتأمله، وفتح صفحاته، ألحقه بكتاب آخر أكبر حجمًا وأكثر كثافة من حيث الورق القديم. قال الجبالى فى دهشة:

ما هذا؟

ذلك توثيق ما بداخل الدفتر.



لا أفهم شيئًا.

سوف أخبرك بعد إتمام الأمور يا أستاذ جبالى، فقط ضع الدفتر الكبير بشكل بارز داخل رف المكتبة، وضع الدفتر الصغير على المكتبة، حيث يظهر أنك قمت بكتابته، أو قم بفتحه؛ بحيث يلفت الانتباه أكثر.

لنعد إلى ذلك الحدث؛ حدث صعود الزوجة، لترى ما يدور فى الطابق الثالث، حيث كان هنالك التاجر داخل محله، يراقبها من بعيد، وفورًا أتى وهرول، وتخفَّى عندما رآها بالطابق الثالث من خلف النافذة الشفافة المُطِلة على الشارع الطويل، وصعد من السلم الخلفى، واختفى خلف الحائط ممسكًا بعصا شديدة البأس، وبعد قيامه بوضع مُكبرات صوتية خفية بالطابق الثالث مُحدِثًا أصواتًا تثير الرعب، حيث يصبح الرعب أكثر تجسيمًا. ظهر له بخفة من وراء الحائط، وهى كانت تنظر ببراءة لتُراقب ما يحدث، ومن أين تأتى تلك الأصوات! ضربها من الخلف، ضربة كفيلة بإفقادها الوعى. ولتغادر المنزل بلا عودة، ولتجبر زوجها على تقبل الخسارة وبيع القصر.

***

عاد السيد جبالى مع أسرته داخل القصر، أتى بسيارة غالية الثمن، حسده عليها سكان ذلك الشارع بأكمله،



الجميع قد علم بتلك اللعبة، التى أعدها تجار التحف، من أجل مساعدة الأستاذ جبالى المسكين الذى لم يعد كذلك. خرجت أسرته المكونة من زوجته وصبيين إلى قصرهم القديم، لعبة ذكية أعدها بدهاء تاجر التحف، على إثرها امتلك منزلًا فى مدينة نصر، وامتلك قصره، وامتلك سيارة. والعجيب والغريب كان عندما دخلوا إلى المنزل، وأغلقوا الباب خلفهم. فقد حدث أمر عجيب وغريب لسكان ذلك الشارع.

***

السيارة تستكين بالخارج مُغطاة بالغبار الكثيف كأنه غطاء. أهملها صاحبها لستة أشهر كاملة لم يجلس إلى مقعد القيادة طيلة تلك المدة الطويلة، حتى ذلك الغبار لم يكن يتواجد داخل السيارة فقط، بل انتشر على أبواب القصر، وعلى نبتة الصبار التى انتصبت فى براءة على جنبات الأبواب، ولم تستلم ولم تحزن لإهمال صاحبها، بل وقفت إلى النهاية إلى أن تأتى النهاية. محل تاجر التحف مغلق منذ تلك الفترة، لا أحد يعلم عنه شيئًا منذ أن جاء «جبالى» وأسرته، وكأنه مولد وقد انفض، ما الأمر وماذا حدث؟ لا أحد يعلم. قال أحد الشهود إنه رأى الجبالى داخل مكتبه، وعبر النافذة رآه ممسكًا بدفتر صغير، وأحد الصبية قال إنه كاذب، وإنه قد رآه ممسكًا بدفتر كبير. كلام أطفال بالطبع! تباينت الآراء من وهناك، لا أحد يعلم مصير تلك الأسرة التى



ذهبت إلى القصر، ربما أستطيع أن أقول إنه ابتلعهم داخله! فلم يرَ أحد خروج أحد الأفراد منه مطلقًا، اةةة تقول إحدى الجارات إنها قد استمعت إلى أصوات صراخ تأتى من هناك، ربما ولا أحد يعلم، فقد اقتحموا القصر ولم يجدوا بداخله أحدًا، والأصوات تأتى من المطبخ وليس من الطابق الثالث، وتأتى من غرف النوم وليس من الطابق الثالث، الأصوات لصِبية صغار يطلبون النجدة، وهناك صوت امرأة تصرخ ولا أعلم يا ولدى المزيد، فكل ما أعلمه أخبرتك إياه والقرار يعود إليك! قالها رجل طاعن فى السن لأحد الضباط، جلسا فى مقهى قريب من القصر المتشح بالسواد، لا إضاءة أفلحت بإضاءته، ولا أضواء الشارع أيضًا، فكل مَن يقترب من منزل يتشح بالسواد، قال الضابط وهو ممسك بالأوراق ويضع كوب الشاى أمامه:

هل يعلم سكان المنطقة بذلك الأمر، أم أنت وحدك؟

قال العجوز بابتسامة مُريحة:

سل أى طفل وسوف يُخبرك بالأمر بأكمله، الجميع يعلم تلك الخدعة، لقد أخبر تاجر التحف بفعلته بكل فخر وكأنه عمل بطولى جسور، وذلك المحل المجاور للقهوة (يشير إليه) حسن، هو كذلك الذى أمامك، هو محل التحف. انغلق بعد دخول الجبالى



وأسرته إلى المنزل بعدة أيام أو بيومين، لا أدرى!

قال الضابط بكل اهتمام:

لقد أتانا بلاغ أن ذلك المنزل تأتى منه أصوات مزعجة لا تجعل أحدًا ينام، القصر يبدو متهالكًا ويوشك على الوقوع، بحثنا عن الورثة ولم نجد، سنُصادر تلك السيارة الموضوعة أمامه، ويمكننا انتظار أحد الأقرباء لتسليمها إليهم، لقد أتيت لأراقب الوضع قبل هدمه، اةةة نسيت، ما اسمك يا «حاج»؟

كان العجوز جالسًا ولا يحتسى شيئًا! وما إن وجد ذلك الضابط الذى خرج من سيارة الشرطة كالتائه يبحث عن القصر المدونة بياناته داخل الورق، هتف له العجوز، وأجلسه معه، وقام بسرد الأحداث إليه بكل التفاصيل الدقيقة، قال العجوز بكل هدوء:

اسمى لا يهم، المهم أنك تعلم بالأحداث قبل أن تهدم ذلك القصر.

تغيرت ملامح الضابط إلى الصرامة قائلًا:

قل لى اسمك أيها العجوز، أنا لا أمزح معك!

وهنا وقف العجوز قائلًا بحزم وهو يغطى أسفل ذقنه بوشاح أسود ويستعد للرحيل:

حسن، أنت أردت، وتعلم الآن الأمر بأكمله، اسمى هو بدر أحمد العشماوى. وداعًا.



لا يقدر أن يمنعه من الذهاب ولا يدرى لماذا، دار فى ذهنه أن يجعله مشتبهًا به، ولكن لا توجد جريمة من الأساس ها هنا! الأطفال تسير، وتنظر إلى الضابط المستكين فوق مقعد، يشيرون إليه قائلين: «مجنون.. مجنون»، وما إن اختفى ظل العجوز حتى انتصب الضابط وهتف لصبى القهوة الذى جاء فى قلق وحذر وقال له بحزم:

هل تعلم مَن هو بدر أحمد العشماوى؟

انتفض الصبى، واهتز لثوانٍ ثم قال بتوتر:

أنا جديد هنا، يمكنك سؤال المجاورين حولك فهم من سكان تلك المنطقة!

ينظر نحوه بصرامة، اتجه نحو مجموعة من الرجال يَسحبون من الشيشة سحبًا من الدخان، ويطلقونه فى الهواء، لم يلاحظ أنهم يراقبونه منذ جلسته الأولى، توقف الجميع عن سُحب الدخان الشبيه بالسحاب الذى ينتشر على الطرق الزراعية فجرًا، متسببًا فى كوارث على جنبات الطريق، قال الضابط:

هل يعلم أحدكم شخصًا يُدعى بدر أحمد العشماوى؟

قال أحدهم بحذر:

فليرحمه الله هو وأسرته المسكينة؟

اتسعت عينا الضابط بدهشة، وأسرع يقول:

هل مات؟

منذ ثلاث سنوات.. لماذا؟

أسرع يقول لهم بصرامة:

هل يمتلك أحد صورة له؟

هتف أحد الرجال المُسنين، وقد وضع كوب الشاى قائلًا:

الأستاذ بدر صديقى، تعالَ.

ثم دس يده فى جيب بنطاله الخلفى وأخرج المحفظة، فتش فيها قليلًا، ثم أخرج صورة تجمعه مع بدر، انتشل الصورة، ونظر إليها بانصعاق، لأول مرة شعر بالخوف، قال: ذلك الرجـ...

تخيل السخرية، تخيل هيبته تقع أرضًا، تخيل كل شىء سيئ، ارتعدت أجهزة جسده لثوانٍ قليلة لم يلاحظها الجميع، هل كان يتحدث مع شبح؟ قال الرجل وهو يأخذ منه الصورة ويضعها داخل محفظته من جديد:

قل لى يا ولدى، لقد رآك الجميع تتحدث مع نفسك منذ ساعات، هل تُعانى مرضًا ما؟ قل لى ولا تخشَ شيئًا، لن أنشر الخبر؟ فمنذ قدومك وجلوسك هنا وأنت تتحدث مع الفراغ! لولا هيئتك كضابط لاعتقدنا أنك مجنون اعذرنى يا ولدى، قل لى إذن،



لماذا تتساءل عن الأستاذ بدر؟ إححجم المعذرة، أنا أحمل قصة لا يعلم بها أحد عن الأستاذ بدر، وعن ذلك القصر البائس.

هل تريد معرفة المزيد، وما لا يعلمه أحد؟ سوف أخبرك بسِر خطير...

سوف تتسع له حدقتاك!

سوف تهرع بعده من هنا!

***

نحن جميعا أشباح هنا.. نبلغ الشرطة بوجود صخب ما فى أحد المنازل. من أجل إحضار «أحدهم»، ومن ثَمَّ نمرح من جديد مع هؤلاء القادمين. أنظر إلى هؤلاء الجنود المُطلين من السيارة. يرونك مجنونًا بالطبع، وأنت تقف وتتحدث إلى نفسك، ومن ثَمَّ تجلس على أحد الكراسى. وتتنقل من كرسى لآخر. اذهب يا ولدى ولا تعُد مطلقًا وأبلغهم أن يكفوا.. وأن لا يقتربوا من تلك المنطقة، أو حتى يحاولوا هدمها. تلك المنطقة قُتل أصحابها عن طريق الغاز السام الذى أطلقه أحدهم، واستنشقه هؤلاء «الغلابة» وهم نائمون. ومن ثَمَّ انتهى كل شىء وانتهينا. ومن بعدها لا نكف عن العبث بالزائرين. إلا أننا فى انتظار زائر خاص جدًّا. وها قد جاء أخيرًا! لماذا أنت صامت؟



لقد سمعنا أن الإدارة العليا قررت إزالة البيوت من تلك المنطقة، وإنشاء كمובند كبير. أخبرهم أن لا يفعلوا! تلك المنطقة ملعونة حتى نهاية الأرض! اذهب إلى عملك يا ولدى، ولا تقترب من هنا. وانتظر!

أنتظر ماذا؟

انتظر ظهور الحقيقة كاملة، لا تتعجب، فهنالك أشباح تمتلك القدرة المادية، حتى تعد لك كوب الشاى الساخن، إذا كنت تريد أن تعلم ماذا حدث لنا، فأنصحك بالذهاب إلى سجلات البحث الجنائى، لكى ترى مدى المأساة والمعاناة التى مررنا بها جميعًا هنا. لقد كنا كبش فداء يا ولدى. من أجل استمرارهم. اذهب قبل أن يأتى هؤلاء الجنود إلى هنا. اذهب قبل أن تصبح مُزحة سخيفة داخل القسم. اذهب وانتظر!

***

تثاءب ذلك الرجل الوقور؛ الذى اشتعل رأسه شيبًا، أعطاه المعطف مَظهر الوقار داخل مكتبه الوثير، وهو يمسك غليونًا، ويحاول إشعاله، وكأن أحدًا بالغرفة غيره! يقوم بنفخ الهواء فتنطفئ النار من «الولاعة» التى أهداها



لـه أحـد ملـوك الخليـج، قـام وبحـث عـن منفـذ الهـواء الـذى يطفـئ نـار اللهـب، وهـو يتأمـل فيلَّتـه مـن جديـد مـن الداخـل عـبر نظـرات متفحصـة، مـن أيـن يـأتى؟ اسـتبعد فكـرة وجـود أشـباح بالغرفـة، سـوف يبحـث عـن مصـدر الهـواء، هتـف بتلقائيـة:

ولاء، تعالى هنا يا بُنيتى.

أتـت فتـاة فى منتصـف العشرينيـات، مُبتسـمة، أخـذت ملامحهـا مـن أبيهـا، والقليـل جـدًّا مـن أمهـا، أخـذت مـن أمهـا بشرتهـا البيضـاء والعينـين الواسـعتين ذات اللـون الأزرق, وذات الطابـع الأوروبى، والأنـف الدقيـق مـن أبيهـا، أتـت كأنهـا فـوق بسـاط طائـر بخفـة، اقتربـت مـن أبيهـا قائلـة بمـرح:

مـاذا هنـاك يـا أبى؟ لمـاذا صوتـك لا يـروق لى تلـك المـرة؟ أهنـاك شىء أزعجـك؟

سـار الأب حتـى جلـس عـلى أقـرب مقعـد، ثـم قـال وهـو يضـع قدمًـا فـوق أخـرى، فى كبريـاء وتعـالٍ واضحـين، ثـم قـال:

انظرى يا حبيبتى إلى تلك الظاهرة العجيبة!

أمسـك «الولاعـة» الذهبيـة، ثـم حـاول إشـعال الغليـون، وكلـما أوقـد النـار، انطفـأت فجـأة، شـعرت الفتـاة بالخـوف والتوتـر؛ اللذَيْـن أخـذا يزحفـان رويـدًا رويـدًا داخـل عُروقهـا، ثـم أسرعـت قائلـة:



لا تقلـق يـا أبى، سـأقول للخـادم أن يحـضر لـك ولَّاعـة جديـدة حـالًا.

قال بعجب ودهشة:

الولاعة سليمة، ولكن كلما اقتربت من الغليون ينطفئ؟

لم تمـر ثـوانٍ، حتـى ذهبـت الفتـاة لتحـضر لـه غيرهـا، لتتحـاشى ذلـك التفكير؛ أن هنـاك مَـن يُطفـئ اللهـب عـن عمد، ولكنـه لا يظهـر، الأمـر بأكملـه مُرعـب، كلـما اقـترب مـن فُوهـة الغليـون يُطفـأ اللهـب، وكأن أحدهـم يقـوم بنفخـه عـلى مقربـة مـن أبيهـا، ارتفـع رنـين الهاتـف المجـاور لـه، وضـع السـماعة عـلى أذنـه بتلقائيـة وثبـات، أتـاه صـوت عميـق يقـول:

هل أنت خالد حمدان؟

أنصـت إلى الصـوت ولم يُجـب بعـد، وكأنـه ينفـذ إلى روح المتصـل، لم يسـمع مـن قبـل صوتـًا بهـذا العُمـق! صوتـًا كأنمـا يـأتى مـن أعـماق بـئر، كأنـه يطلـب النجـدة، اسـتمع بعدهـا لصرخـات عميقـة، وكأنـه لا ينصـت لهـا، فى انتظـار المقولـة المُقبلـة: مـاذا تريـد؟!



الصـوت يرتفـع ويرتفـع، كأن أحدهـم وقـع داخـل البـئر بالفعـل، قـال أخـيرًا صاحـب الصـوت:

قد حان الوقت لأن يعود الحق لأصحابه.

هـل هـو مـزاح أطفـال؟ لكـن الصاحـب لا يمـزح! وذلـك الـصراخ يـأتى مـن حولـه، كأنهـا داخـل مولـد كبـير، كل مـن فيـه يـصرخ، ويطلـب النجـدة، لم يسـتطع إغـلاق الخـط، فإنـه رغـم شـيبته يسـتطيع تمييـز الأصـوات، هنـاك صـوت يشـبه صراخ ابنتـه «ولاء». ولكـن كيـف ذلـك الأمـر؟

أغلق الخط المتصل، ليستمع إلى صوت الفراغ...

لم تمـر دقيقـة واحـدة، حتـى أتـاه صراخ مـن الأعـلى؛ صـوت ابنتـه «ولاء»، ففـزع وقـام، وأسرع نحوهـا، وهنـا أوقفـه...

ظِل!

***

ظِـل يتضـح الآن أنـه عـلى شـكل هلامـى، يحمـل سـكينًا، ويقـف أمامـه مباشرة، لم يكـن ظـلًا واحـدًا. فـور رؤيتـه لذلـك الظـل، تصلَّـب فى مكانـه كالمسـمار، بـدون رد فعـل، وهـو يراقب توافـد الظِّـلال واحـدًا تلـو الآخـر، فتـح فـاه قائـلا:

مممـم، مـاذا تريـد؟ مـاذاااا تريـدون منـى ومـن عائلتـى؟!

أتاه صوت الظِّل.. العميق، يقول:

القصاص!



وظِـل آخـر يقـول... اتضحـت معالمهـم البشريـة، وكأنمـا يكتسـون طبيعـة بشريـة ماديـة عندمـا يقولـون أجمعـين: «القصـاص.. القصـاص.. القصـاص».

أدرك حينها الأمر...

إنهم هم...

وقد جاءوا لتنفيذ القصاص.

وهنا قال بعدما اقترب منه الشبح:

لاااااااااااااااااااااااااااا.

***





الزائر الغريب
الخاتمة

التقرير المبدئى لمنطقة ٣٩ شرق القاهرة
المنطقة غير المُدرجة

قمت بزيارة المنطقة المدرجة بعد مهاتفات تليفونية تطلب النجدة بشكل مستمر، مما يندرج تحت مسمى «إزعاج للسلطات». فور نقلى إلى ذلك القسم، مهاتفات لا تنقطع، وكأننى نبَّهتهم بوجود القسم! وكأنهم كانوا فى انتظارى! لبدء إزعاج لا ينتهى، ذهبت وأنا أعتقد بأن منزل أحدهم مسكون، جئت إلى تلك المنطقة، بعد أن أدرجت تقرير هدم ذلك المنزل من الأساس، ولكن فى حقيقة الأمر فإن هناك مَن يود نسف تلك المنطقة من أجل إنشاء كمبوند سكنى، ولا نزال نتلقى المهاتفات إلى وقتنا هذا:

سيدى مدير القطاع، أصعد لك شكوى رسمية، تجاه المسئولين الحقيقيين، بقتل هؤلاء البشر، قبل أن تأخذ ردة فعل غير مدروسة وتعتقد بأنى قد أصبت بمس من الجنون،



وبعد أن أخبر الجنودُ رئيسَ القطاع بأنى كنت أتحدث إلى نفسى طيلة ثلاث ساعات كاملة، أبرئ نفسى تمامًا يا سيدى من تلك التهمة الشنعاء؛ فلا يزال القسم يتلقى مهاتفات تطلب النجدة من المنزل، أخبرك يا سيدى بالتفصيل ما حدث لى هناك.

علمت قصة صاحب المنزل، الذى قُتل هو وأسرته وأُحرِقوا فى قصرهم المتهالك، كنت أتحدث إلى شبح صاحب ذلك القصر!

لا تتهمنى بالسذاجة، بالطبع هناك أشباح، وبالطبع كان يمزح معى فى أمور شتى وعديدة لسبب مجهول، لكنى فطنت له أخيرًا، أراد أن يرانى الجنود القابعون داخل السيارة أتحدث مع الهواء؛ ليُقسموا بعدها فيما بعد بوجود أشباح، حينما ينهى الأشباح مهمتهم ينهون ما بدأوا! وتلك هى المرة الأولى التى أطلق فيها مزاحًا على يد شبح عجوز، ومن ثَمَّ الأشباح تباعًا، قبل أن تظهر الحقيقة!

أنه تم قتله، وقتل باقى أسرته، ومن ثَمَّ أطلق غاز سم عبر طائرة هليكوبتر، ومن ثَمَّ مات الأناس وهم على الفراش، المئات منهم، ماتوا وهم نيام، الغريب أن مدير القسم أرسل عدة سيارات إلى هناك، حيث تقبع تلك المنطقة، مسكونة، غير حية بالمرة، لا يوجد هنالك صوت



لشىء حى، وبعد أن صعد الجنود إلى المنازل الساكنة، وجدوا داخلها عظامًا أو ما تبقى منهم جميعًا، وجدوهم على الفراش أجمعين، لم ينجُ منهم أحد، الجميع قد مات، مئات الأسر ماتوا فى سكون، من أجل مشروع من يجنى الكثير من المال، ولم يُحاسَب أحد على مقتلهم، ولن يُحاسَب أحد، أنا كنت الزائر الغريب الذى رأى كل هذا يا سيدى، الذى رآهم أجمعين، وبعدها علمت لماذا لم يرهم الجميع ورأيتهم أنا! مئات البشر ماتوا فى سبيل أن يغتنم أحدهم أموالًا طائلة، بدون أدنى ضمير، لقد اختلق أحدهم قصة رجل يريد الأموال لفقره الشديد، ومن ثَمَّ عرض بيع منزله فاقنع أحدهم أن المنزل مسكون، ومن ثَمَّ أعاد القصر وأمواله، ولم أرَ عمق تلك القصة إلا بعد رحيلى، القصة أعمق كثيرًا مما كنت أتخيل، ومتداخلة بشدة، بعضها حقيقى والبعض الآخر مُزحة أشباح. لماذا تعتقد يا سيدى أننى الوحيد الذى استطاع رؤيتهم؟ لأنى ابن الجانى؛ أنا ابن رجل الأعمال الشهير «خالد حمدان»، الذى يدير الدولة من العُمق، والذى يفعل ما يحلو له، ولكن بالكاد لم يستطع الفوز بالمنطقة، ولن يستطيع، ويفعل كل ما هو مستحيل، من أجل الوصول إلى ما يريده!

الآن قد أخبرتك بالحقيقة كاملة يا سيدى، ففضلًا أعدموا أبى عدة مرات، فلا أخفى عليك يا سيدى، الإعدام الأول



هـو فى نفـسى أنـا، لأن الأشـباح تجلـس معـى الآن، منـزلى يعج بهـم، وقـد أخـبرونى بـكل شىء، المدعـو «بـدر» يمسـك بالسـكين، ويسـتعد لغـرزه فى قلبـى، وأنـا أتقبـل ذلـك الوضـع، ذنبـى الوحيـد أن ذلـك الرجـل هـو أبى. والقصـاص، درسـته وأصبـح مـن مبـادئى داخـل دهاليـز كليـة الشرطـة، ومـا يريـده «بـدر» هـو القصـاص، وأنـا أتقبـل العـدل، مثلـما تتقبلـه دولـة القانـون، سـوف يذهبـون بعدهـا إلى منـزل أبى، فى فيلتـه الشـهيرة، ليتـم القصـاص العـادل، سـوف يقتلـون عائلتـى بأكملهـا، وذلـك هـو العـدل، وأنـا أتقبلـه عـن طيـب خاطـر، لا يبحـث أحدكـم عـن الجـانى، لأنـه كان يجـب عليكـم منـذ المـرة الأولى، فالمـرة الأولى كانـت أولا وتسـتحق أن تبحثـوا عـن الجـانى الحقيقـى المتسـبب فى قتـل مئـات الأسر، الـشىء المبهـج فى الوضـع أنى سـوف أقابـل بعـد دقائـق عائلتـى فى العـالم الآخـر، ورحلتـى هـا قـد أتـت نهايتهـا وفائدتهـا الوحيـدة بالكشـف عـن أبشـع جريمـة فى هـذا القـرن.

أتقـدم لكـم باسـتقالتى الرسـمية والحاسـمة، التـى لا تُقابـل بالرفـض.

أشـعر بالسـكين تخـترق برفـق موضـع قلبـى ولم تخترقـه بعـد، وأشـعر بـبرودة السـكين وتجمُّـد قلبـى، وبُقـع الدمـاء التـى تقـع عـلى الورقـة.

لؤى خالد حمدان



الظواهر المُحيرة لوجود وظهور الأشباح

مؤخـرًا تـم تـداول صـورة تعـود إلى أيـام الأبيـض والأسـود فى التصويـر، ذكـرت وسـائل الإعـلام أنهـا تثـير رعبًـا ولغـزًا، وسِرًّا غـير مفهـوم، ففـى الصـورة التـى تعـود إلى العشرينيـات مـن القـرن العشريـن، وفيهـا ١٥ فتـاة مـن عامـلات الطواحـين، يقفـن بشـكل جماعـى تـذكارى، وهـن يضعـن أيديهـن بشـكل متقاطـع، هنـاك يـد غريبـة تظهـر عـلى كتـف واحـدة مـن الفتيـات، قيـل إن مصدرهـا شـبح.

تبـدو اليـد عـلى كتـف فتـاة فى الصـف الثـانى مـن الجهـة اليـسرى، بينـما تقـف الفتـاة التـى تظهـر خلفهـا بيديهـا متقاطعتـين؛ أى أن تلـك اليـد ليسـت يدهـا، وهـذا مـا أثـار الاسـتغراب.

وفـسر البعـض الأمـر عـلى أنـه تعديـل عـبر برنامـج الفوتوشـوب، لكـن الخـبراء ينفـون أن يكـون قـد تـم التلاعـب بالصـورة عـلى الكمبيوتـر.



مهما يكن سواء صدَّقنا أم كذَّبنا، فهذه الصورة ليست إلا واحدة من عشرات الصور التى تحتوى الألغاز ذاتها، حول ما يعتقد أنها أشباح لأناس مجهولين، وأحيانًا لموتى، تظهر فى الصور، حيث لم تكن هذه الشخوص موجودة فى الأمكنة نفسها ساعة التصوير. والغريب أن ذلك يتم غالبًا فى الصور القديمة بالأسود والأبيض، وهو الأمر الأكثر لغزًا.



وهناك الكثيرون فى الغرب ممن يعتقدون بهذه الأشباح وظهورها فى الصور أو فى الواقع، وثمة أدبيات كثيرة فى هذا الإطار وفى الروايات والأفلام.

هنا بعض من هذه الصور المثيرة التى يزعم إلى اليوم أن وراءها أسرارًا، وننقل هنا ما يدور حولها من معتقدات وخرافات.. لسنا مُلزمين بتصديقها.

الشبح المقلوب فى البيت القديم لعائلة كوبر بتكساس

هذه الصورة تُعرف بصورة «عائلة تكساس» أو «عائلة كوبر» وقد التُقطت فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، عندما رحلت هذه العائلة لمنزل قديم بعد شرائه للسكن فيه، والتُقطت صورة تذكارية به فى أول يوم دون أن تدرى أن هناك شريكًا لها فى البيت.. هذا الشبح المُعلَّق من أعلى لأسفل، والذى صعب تفسيره أو العثور عليه فى الواقع. وهناك اعتقاد مُلازِم للناس بأن المنازل المهجورة أو القديمة بلا سُكان تسكنها الأشباح.



منزل الأشباح فى أميتيفيل بنيويورك

فى صباح ١٣ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٧٤ قام رونالد الابن بإطلاق النار على والده وثلاثة من إخوته بقرية أميتيفيل فى نيويورك، وعُثر على الجثث دون أى أثر عليها للرصاص أو الجروح. وروى الجيران أنهم لم يسمعوا أى شيء، فى حين ادَّعى رونالد بأن هناك شبحًا بالبيت دفعه لقتل الأشقاء؛ لأن النية كانت مقتصرة على قتل والده.



المهم أن البيت تم عرضه للبيع لاحقًا، وقد اشتراه جورج وكاثى لوتز رغم تحذيرات السماسرة بخطورة هذا البيت، لكن المشترين كانا مفتونَيْن بالبيت وحجمه وحمَّام السباحة به والمرآب وواجهته البحرية الرائعة. وبدأت المتاعب بعد ٢٨ يومًا بظهور العديد من الأشياء المُخيفة فى البيت: من موتٍ غريب لكلب العائلة، إلى ظهور صورة لرأس شيطانى على الحائط، مع ظهور طين أخضر فى ثقوب المفاتيح فى الأبواب وغُرباء يحدقون عبر نوافذ غُرف النوم... وأخيرًا قررت الأسرة التى لا تؤمن بالأشباح أن تغادر المنزل فورًا، وأرسلت مُحققين لدراسة المكان الذين شعروا هم أيضًا بوجود شخص غريب فى المنزل، وقد التقطت صورة لأحد المحققين بالكاميرا لتخلد هذا الشخص الغريب الذى يبدو طفلًا يطل من باب أحد الغرف قريبًا من السلم.. الأمر الذى لم يجدوا له تفسيرًا إلى اليوم!

شبح جسر أوك غروف بكنتاكى

قام جندى بقتل زوجته فى عام ١٩٦٠ بمنطقة أوك غروف بولاية كنتاكى الأمريكية، وقد رمى بها تحت الجسر، الذى سيُعرف لاحقًا باسم «جسر الشبح».. حيث تظهر امرأة شبه متحللة ليلًا وهى تتمشى فى المكان عند الجسر. وقيل إنه إذا ما توقفت سيارة ليلًا عند الجسر فإنها لا تتحرك إلا



إذا أشرقت الشمس أو تم دفعها بعيدًا عن الجسر. الصورة المأخوذة يُقال إنها لشبح المرأة المقتولة المُتحللة.

مستشفى الأشباح والممرضة مارى

هاتان الصورتان التُقطتا فى مصح قديم بولاية كنتاكى الأمريكية كان يعالج فيه مرض السل، قبل العلاجات الحديثة، وقد كانت العلاجات غير متطورة مثل التعرض للشمس، وهناك علاجات غير أخلاقية تقضى بالتخلص من المرضى، ولم يكن ينجو سوى ٥٪ فقط من المرضى.





ويعتقـد بـأن حـوالى ٨٠٠٠ جثـة أُلقيـت بـلا مبـالاة أسـفل شـلال مـائى عـبر نفـق تحـت المبنـى وبقيـت هـذه المسـألة تتـم بسريـة تامـة للتخلـص مـن الميئـوس منهـم.

وقـد أُغلـق المصح مـع اكتشـاف المضـادات، لكـن الاعتقـاد بأنـه إلى اليـوم تحـوم أرواح المـرضى فى المستشـفى، وأشـهرهم ممرضـة اسـمها مـارى التـى تطـل فى الصورتـين.

وكان قـد عُـثر عليهـا منتحـرة فى إحـدى الغـرف، بعـد أن اكتشـفت أنهـا حامـل مـن طبيـب مـن غـير زواج يجمعهـما. ويعتقـد البعـض أنهـا تتجـول إلى اليـوم بحثًـا عـن شـفاء لـلألم النفـسى، فى المـكان المهجـور.

طفلة القبور فى كوينزلاند الأسترالية

عندما التقطت السيدة أندروز هذه الصورة، فى مقبرة بولاية كوينزلاند، بأستراليا سنة ١٩٤٠ وهى تزور قبر ابنتها التى ماتت فى سن السابعة عشرة، كان كل شىء عاديًّا.. ولاحقًا ظهرت المفاجأة فى الصورة؛ حيث ظهرت بجوار القبر طفلة بهية صغيرة، لا تتذكر السيدة أندروز مَن تكون أو أين رأتها. وبعد تحقيقات اتضح عدد من الخوارق الأخرى بجوار القبر، حيث هناك قبران لطفلتين رُضع بجوار قبر ابنة أندروز الصبية، ولكن لم يتأكد إن كانت الطفلة التى ظهرت فى الصورة هى واحدة منهما أم لا!



الجندى القتيل الذى ظهر فى الصورة الجماعية

عندما التقط عدد من ضباط سلاح الجو الملكى البريطانى هذه الصورة الجماعية عام ١٩١٩ لم يتوقعوا أن يوجد بينهم فيها زميلهم الفقيد فريدى جاكسون الميكانيكى بسلاح الجو الذى قُتل قبل يومين من التقاط هذه الصورة، عندما التفت به شفرة مروحة إحدى الطائرات أثناء إصلاحها فمات على الفور، وبعد أن دُفن بمراسم جنائزية، فها هو يعود فى الصورة التذكارية مع زملائه، وهو لغز لا أحد يعرف حلّه، كما يزعمون!



محمود إمام

كاتب روائى من مواليد القاهرة، سبق له النشر فى معظم الجرائد المصرية.. صدر أول أعماله الروائية «المنكود» عام ٢٠١٤، والثانى رواية «السرب» نهاية عام ٢٠١٥، وتحولت «الجلسة التاسعة» إلى عمل فنى مسرحى، وهى من نوعية الإثارة النفسية.. وصولًا لرواية «حنين زائف»؛ التى لاقت قبولًا جماهيريًّا معقولًا، وهى من نوعية الرومانسية الاجتماعية.

وفى عام ٢٠١٨ صدر له عملان، وهما رواية «العودة» بمعرض القاهرة الدولى للكتاب؛ والتى كانت الأكثر مبيعًا فى مكتبات فيرجن بوك ستورز، و«كفر الهلع».

أعمال الكاتب:

المنكود.

السرب.

الجلسة التاسعة (تحولت لعمل فنى مسرحى).

حنين زائف (تحولت لنص مسرحى).

العودة.

كفر الهلع.



ولمتابعة الكاتب

https://www.facebook.com/mahmoud.emam.35

https://www.instagram.com/mahmoud.emam.35



زوار القصر

اين ذهبت اسرة الاستاذ بدر ؟!

شاهدهم الجميع وهم يسيروا داخل القصر ؟ وبعدها لم يراهم أحد ! ترى هل ذهب الاستاذ بدر الى ارض اخرى كما يقولون ؟

ماذا حدث لسكان تلك المنطقة ؟.

من هو الزائر الغامض ؟

تلك الرواية خطرة !.. افتحها بهدوء شديد لانها سوف تنفذ داخلك وتغوص داخل نفسك البشرية المظلمة ! وترى الجانب الاخر ! جانبك المظلم !



محمود إمام؛ كاتب روائى من مواليد القاهرة، سبق له النشر فى معظم الجرائد المصرية.. صدر أول أعماله الروائية «المنكود» عام 2014، والثانى رواية «السرب» نهاية عام 2015، وتحولت «الجلسة التاسعة» إلى عمل فنى مسرحى، وهى من نوعية الإثارة النفسية.. وصولًا لرواية «حنين زائف»؛ ، وهى من نوعية الرومانسية الاجتماعية. وفي عام 2018 صدر له عملان، وهما رواية «العودة» ، و«كفر الهلع».

غلاف : أسامة علام



